أسلوب التعليق بالمحال في القرآن الكريم وأسراره الدلالية

The Style of Commenting on the Impossible in the Holy Quran and its Semantic Secrets

إعداد

د/ محمد فضل محمود نور الدين

المدرس بقسم التفسير وعلوم القرآن
بكلية أصول الدين بالقاهرة

أسلوب التعليق بالمحال في القرآن الكريم وأسراره الدلالية

محمد فضل محمود نور الدين

قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية أصول الدين بالقاهرة، جامعة الأزهر، مصر

البريد الإلكتروني: mfadl66@yahoo.com

الملخص :

يتناول هذا البحث دراسة أسلوب من الأساليب القرآنية والفنون البلاغية التي عُنِيَ بها علماء التفسير وعلوم القرآن، ويدور في مضمونه حول أسلوب فريد يسمى:«التعليق بالمحال»، وهو من الأساليب العربية البديعة في الخطاب والمبثوثة في البيان كله على اختلاف صنوفه، فقد ورد في كلام العرب شعرا ونثرا، وفي كلام الصحابة وأمهات المؤمنين، وتواترت به سنة النبي صلى الله عليه وسلم الصادق الأمين، وكثر مجيئه كذلك في آيات الذكر الحكيم، والغاية منه أينما ورد وحيثما أتى هي المبالغة والتأكيد ونفي حدوث ما عُلِّق به، وقد عُنِيَ البحث ببيان ذلك في بعض آيات القرآن التي وردت على هذا الأسلوب من خلال التعريف به، وبيان مواقعه وصوره في آيات الذكر الحكيم، وكانت غايتي من ذلك: التأصيل لأسلوب فريد من أساليب كتاب الله والكشف عن دلالته وأسراره في القرآن الكريم.

الكلمات المفتاحية: أسلوب، التعليق بالمحال، القرآن الكريم، الأسرار الدلالية.

The Style of Commenting on the Impossible in the Holy Quran and its Semantic Secrets

Muhammad Fadl Mahmoud Nour El-Din
Department of Interpretation and Quranic Sciences, Faculty of Fundamentals of Religion in Cairo, Al-Azhar University, Egypt
Email: mfadl66@yahoo.com

Abstract

This research deals with the study of a style of the Quranic styles and rhetorical arts that scholars of interpretation and Quranic sciences have been interested in. This research revolves in its content around a unique style called: "Commenting on the Impossible", which is one of the beautiful Arabic styles in discourse and spread throughout all of its different types. It has been mentioned in the speech of the Arabs in poetry and prose, and in the speech of the Companions and the Mothers of the Believers, and it has been transmitted by the Sunnah of the Truthful and Trustworthy Prophet (peace and blessings of God be upon him), and it has also been mentioned frequently in the verses of the Wise Remembrance. Its purpose wherever it appears and wherever it comes is exaggeration, emphasis, and denial of the occurrence of what it was commented on. This research has been concerned with explaining this in some of the verses of the Quran that have been mentioned in this style by defining it, and explaining its locations and images in the verses of the Wise Remembrance, and it was My goal in doing so: to establish a unique style of the Book of God and to reveal its significance and secrets in the Holy Quran.

Keywords: Style, Commentary On The Impossible, The Holy Quran, Semantic Secrets.

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي نور بكتابه القلوب، وأنزله في أوجز لفظ وأعجز أسلوب، فأعيت بلاغته البلغاء، وأعجزت حكمته الحكماء، وأبكمت فصاحته الخطباء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أنزل القرآن وأودع فيه أسرار البيان، وجعله عَلَما على معالم الهدى ورسالة خالدة على مر العصور والأزمان، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبده ورسوله النبي الهادي العدنان، محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجه بإحسان، **أما بعد:**

فإن من أجَل العلوم وأرفعها العلم بكتاب الله والغوص في أساليبه والكشف عن أسراره ومعانيه، ومن أهم مباحث علوم القرآن الكريم التي عُنِيَ بها العلماء:«معرفة أساليب القرآن وفنونه البليغة».

إن دراسة الأساليب القرآنية من خدمة كتاب الله وتجلية أوجه العظمة فيه بإبراز معانيه، وتجلية مقاصده والوقوف على أسراره وجوانب إعجازه، ومعرفة المنهج القويم والأساليب المثلى التي سلكها في تلقي المخاطبين معين لا ينضب، وكنز لا يفنى، ورغم كل الدراسات فيه بمختلف توجهاتها إلا أن الغوص في أساليبه لا يزال مستمرا للكشف عن هذا الجمال المعجز، ولذلك عد الإمام الزركشي (ت: ٧٩٤هـ) دراسة الأساليب القرآنية الغرض الأسمى والمقصد الأعظم من تأليف كتابه البرهان فقال:«اعلم أن هذا علم شريف المحَل، عظيم المكان، قليل الطُّلاب، ضعيف الأصحاب، ليست له عشيرة تحميه، ولا ذوو بصيرة تستقصيه، وهو المطلع على أسرار القرآن العظيم، الكافل بإبراز إعجاز النظم المبين»(١).

ومن هنا وبينما أقرأ تفسير قوله تعالى:﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا

(١) البرهان في علوم القرآن (٣٨٢/٢) بتلخيص.

ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾[١] وجدتُ الإمام الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) قد قال في تفسيره ما نصه:«فإن قلت: كيف استُثنِيَت الموتة الأولى –المذوقة قبل دخول الجنة– من الموت المنفي ذوقه فيها؟ قلت: أريد أن يقال: لا يذوقون فيها الموت البتة، فوُضِع قوله:﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾موضع ذلك؛ لأن الموتة الماضية محال ذوقها في المستقبل، فهو من باب «التعليق بالمحال»، كأنه قيل: إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها في المستقبل فإنهم يذوقونها»[٢].

فلفت نظري وجذب انتباهي قول الإمام الزمخشري:«**فهو من باب التعليق بالمحال**»، فبدأتُ أتأمل هذا الأسلوب وأتدبره في آيات التنزيل، وأتلمس مواضعه في القرآن الكريم، وأجمع شتاته من كتب أهل العلم بغرض الكشف عن أسراره الدلالية في آيات الذكر الحكيم، والتأصيل لأسلوب قرآني فريد لم يُفرَد بالتأليف والدراسة، فكان هذا البحث موسوما بعنوان:«أسلوب التعليق بالمحال في القرآن الكريم وأسراره الدلالية».

أولا: أسباب اختيار الموضوع:

لقد دفعني إلى اختيار هذا الموضوع والكتابة فيه عدة أسباب من أهمها:

أولا: عدم وجود مؤلَّف مستقل بالمكتبة الإسلامية تناول دراسة هذا الأسلوب والكشف عن أسراره الدلالية في آيات القرآن الكريم، فشجعني ذلك على الكتابة فيه قصد دراسة الأسلوب ذاته وبيان قيمته وأسراره في آيات الذكر الحكيم.

ثانيا: بيان إعجاز القرآن الكريم في الكشف عن أسلوب من أساليبه وأثره الدلالي في التفسير، فإنه لما كانت بلاغة القرآن الكريم تشكل المحور الأساسي في قضية الإعجاز، لذلك سعى البحث إلى الوقوف على واحد من أساليب

---

(١) سورة:(الدخان)، الآية:(٥٦).

(٢) تفسير الكشاف (٤/ ٢٨٣).

القرآن والكشف عن أسراره.

ثالثا: دفعني إلى ذلك أيضا بيان أثر أسلوب التعليق بالمحال في كتب المفسرين من حيث المعاني واللفتات البلاغية والأسرار الخفية في تميز أساليب القرآن الكريم وبيان مكامن جماله وإعجازه.

رابعا: من الدوافع القوية أيضا أنه قد لفت انتباهي وأنا أتلو آيات القرآن الكريم هذا الأسلوب المعجز، فقمتُ بتتبع الآيات التي تضمنت أسلوب التعليق بالمحال واستخرجتُها وحددتُ معناها من خلال سياق الآية وأقوال المفسرين وأهل العلم فيها.

ثانيا: الدراسات السابقة:

من خلال البحث في الوسائل المتاحة لدي لم أقف –في حدود بحثي واطلاعي– على رسالة علمية أو كتاب أو بحث تناول نفس العنوان تناولا مركزا أو بحثه بحثا علميا معمقا من خلال آيات القرآن الكريم، في حين أنني قد وقفتُ على بحث بعنوان:«التعليق بالمحال في البيان النبوي – مواقعه، صوره، بلاغته»[1] وقد عُنِيَ الباحث فيه ببيان (التعليق بالمحال في البيان النبوي فقط)، فاستعنتُ بالله تعالى أن أتناول هذا الأسلوب وأتتبع مواضعه وصوره في آيات الذكر الحكيم؛ لأن غاية ما وقفتُ عليه إنما هو إشارات وتعليقات متفرقة يسيرة لأهل العلم على شواهد لهذا الأسلوب من آيات القرآن الكريم، وهي على نفاستها وأهميتها غير كافية شافية في التنويه بهذا الأسلوب والكشف عن أسراره الدلالية، إذ كانت تكتفي بالتنبيه على أن الآية من «باب التعليق بالمحال» –كما بينتُ في عبارة الإمام الزمخشري السابق ذكرها– دون تفصيل القول وبيانه في الصورة التي جاء عليها هذا الأسلوب الفريد، أو بيان

(١) هذا البحث إعداد د/ ياسين عطية جمعة، مدرس البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية بالقاهرة، وهو بحث منشور بمجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، العدد السابع والثلاثون، الإصدار الثاني، مايو ٢٠٢٤م، وقد استفدت من هذا البحث القيم في التأصيل لأسلوب «التعليق بالمحال» في الجانب النظري.

وجه المناسبة بين المعلَّق والمعلَّق به، إلى غير ذلك مما لا يقدح في صنيع هؤلاء الأئمة الكبار، رحمهم الله وجزاهم عما قدموه لنا خير الجزاء.

ثالثا: منهج البحث:

اقتضت طبيعة البحث أن أتبع فيه منهجا مناسبا تتوافق أسسه وخصائصه مع طبيعة هذا الموضوع، لذلك لجأ الباحث إلى اتباع المنهج **(الاستقرائي الوصفي التحليلي)**، وبيان هذه المناهج على النحو التالي:

١) **المنهج الاستقرائي**(١): يتمثل في تقصِّي مواقع أسلوب «التعليق بالمحال» وتتبُّع مواطنه في آيات الذكر الحكيم، وقد أسلم الاستقراء إلى حصر (أربعة وعشرين) موضعا من آيات القرآن سيأتي بيانها.

٢) **المنهج الوصفي**(٢): يتمثل في وصف الآيات القرآنية –التي بُنِيَت على هذا الأسلوب– وجمع أقوال المفسرين وأهل العلم فيها، ثم تصنيفها حسب الصورة التي جاءت عليها.

٣) **المنهج التحليلي**(٣): يتمثل في تحليل الآيات القرآنية –التي بُنِيَت على هذا الأسلوب– لبيان دلالتها وتناسب المعلَّق به مع المعلَّق، واعتمدتُّ في ذلك على ما ذكره المفسرون في كتبهم، فضلا عن الكتب البلاغية التي تناولت بعض الآيات القرآنية –محل الدراسة–.

---

(١) المنهج الاستقرائي: هو الذي يقوم على التتبع لأمور جزئية مستعانا على ذلك بالملاحظة والتجربة وافتراض الفروض لاستنتاج أحكام عامة منها.
البحث العلمي، حقيقته، ومصادره، ومادته، ومناهجه (ص: ١٧٨)

(٢) المنهج الوصفي: هو منهج يُتوصل به إلى وصف الظاهرة وصفا علميا دقيقا يتناول جميع عناصرها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، أو يُكتفَى بوصف عنصر منها. المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي (ص:١٨١)

(٣) المنهج التحليلي: هو منهج يقوم على الدراسة والنظر والاستنباط والتعليل، وبيان العلاقات بأسلوب علمي واضح للوصول إلى الحقائق والنتائج، ثم تفسيرها بطريقة موضوعية تنسجم مع المعطيات الفعلية للظاهرة. المصدر السابق (ص: ١٨٨)، والبحث العلمي أساسياته النظرية وممارسته العلمية (ص: ١٨٣)

رابعا: خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث أن يتكون من (مقدمة، وتمهيد، وخمسة مباحث، وخاتمة، وفهارس عامة) كما يلي:

- **المقدمة:** وتشمل (أسباب اختيار الموضوع، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، وخطته).
- **التمهيد:** ويشمل أربعة مطالب:

المطلب الأول: حديث العلماء عن أسلوب التعليق بالمحال.

المطلب الثاني: مفهوم التعليق بالمحال لغة واصطلاحا.

المطلب الثالث: مواقع التعليق بالمحال.

المطلب الرابع: صور التعليق بالمحال في آيات الذكر الحكيم.

- **المباحث:** وهي على النحو التالي:

المبحث الأول: تلبُّس التعليق بالمحال بـ(النفي والاستثناء)، وفيه اثنا عشر موضعا.

المبحث الثاني: تلبس التعليق بالمحال بـ(الشرط)، وفيه ثمانية مواضع.

المبحث الثالث: تلبس التعليق بالمحال بـ(النفي)، وفيه موضعان.

المبحث الرابع: تلبس التعليق بالمحال بـ(حتى)، وفيه موضع واحد.

المبحث الخامس: تلبس التعليق بالمحال بـ(لعل)، وفيه موضع واحد.

- **الخاتمة:** وفيها أهم النتائج المستخلَصة من البحث والمقترحات.
- **الفهارس العلمية:** وتشمل فهرس المصادر، وفهرس الموضوعات.

هذا وقد حرصتُ قدر طاقتي على إخراج هذا البحث في صورة جامعة نافعة، ولا أدِّعي في ذلك الكمال فإنه من صفات الكبير المتعال، والنقص والتقصير من صفات البشر.

أسأل الله العلي القدير أن يسدد قلمي، ويقوي حجتي، ويمنحني الإخلاص في قولي وعملي، وأن لا يكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك، فهو ﷻ حسبنا ونعم الوكيل، وهو نعم المولى ونعم النصير،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



التمهيد

مما لا شك فيه أن للقرآن الكريم أسلوبه الذي تميز به بما فيه من خصائص فنية، وسمات بلاغية، ولطائف لغوية، ودقة تصويرية، وروعة بيانية، يقول الإمام الزرقاني:«فأسلوب القرآن الكريم هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، ولا غرابة أن يكون للقرآن الكريم أسلوب خاص به ، فإن لكل كلام إلهي أو بشري أسلوبه الخاص به، وأساليب المتكلمين وطرائقهم في عرض كلامهم من شعر أو نثر تتعدد بتعدد أشخاصهم، بل تتعدد في الشخص الواحد بتعدد الموضوعات التي يتناولها والفنون التي يعالجها»[1].

هذا ومن أساليب الخطاب البديعة المبثوثة في الكلام كله على اختلاف صنوفه أسلوب «التعليق بالمحال»، وهنا يتبادر إلى الذهن عدة أسئلة رئيسة: ما مفهوم التعليق بالمحال لغة واصطلاحا؟ وما صوره؟ وما مواقعه؟ وهل استعمل القرآن الكريم هذا الأسلوب؟ وما أثره على فهم معاني آيات الذكر الحكيم؟ كل هذه التساؤلات وغيرها سوف نتعرف عليها في المطالب الآتية.

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/٣٠٣).

المطلب الأول

حديث العلماء عن أسلوب «التعليق بالمحال»

لم تخْل كتب علمائنا القدامى من إشارات علمية قيمة لأسلوب «التعليق بالمحال»، فقد تمثل به العرب في شعرهم ونثرهم، وتحدث به الصحابة وأمهات المؤمنين، وتواترت به سنة النبي ﷺ الصادق الأمين، وكثر مجيئه كذلك في آيات الذكر الحكيم، لكن لم يصِلْنا مؤلَّف مستقل تناول الحديث عن هذا الأسلوب الفريد وبيان صوره وتحديد معناه، ولم يُفرِد أحد له بابا -فيما وقفتُ عليه- غاية ما في الأمر أنني قد وجدتُ إشارات وتعليقات يسيرة متناثرة لأهل العلم تشير إلى هذا الأسلوب بالتصريح أو بالتلميح من خلال التأمل في سياق الكلام.

ولعل أول من ألمح وأشار إلى هذا الأسلوب من المفسرين الإمام الماتريدي (ت: ٣٣٣هـ) حيث قال عند تفسير قوله تعالى:﴿ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِ ﴾[١]:«هذا على الإياس أنهم لا يدخلون أبدا الجنة كما لا يدخل ما ذُكِر في سَم الخياط فإنه لا يدخل أبدا»[٢].

فيُفهَم من كلام إمامنا -رحمه الله- أن الآية الكريمة قد حكمت بأن هؤلاء الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها لا يدخلون الجنة أبدا إلا إذا دخل الجمل في سَم الخياط، ودخول الجمل في سَم الخياط أمر محال، لذا كان دخولهم الجنة أيضا أمرا مستحيلا، فظاهر الآية الكريمة يفيد تعليق الخلاص من العقاب بانسلاك الجمل في سَم الخياط، وليس هو على الحقيقة تعليقا وإنما هو إبداء اليأس من النجاة.

وقد لوحظ أيضا أن هناك علماء آخرين قد استعملوا هذا الأسلوب وألمحوا إليه في أثناء كلامهم دون التصريح به، منهم: أبو إسحاق الزجاج (ت:

---

(١) سورة:(الأعراف)، من الآية:(٤٠).

(٢) تأويلات أهل السنة (٤/٤٢٢).

٣١١هـ)(١)، ومكي بن أبي طالب (ت: ٤٣٧هـ)(٢)، والسمعاني (ت: ٤٨٩هـ)(٣)، والبغوي (ت : ٥١٠هـ)(٤).

وأحسِب أن أول من سماه:«التعليق بالمحال» هو الإمام الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)، فقد صرح بهذا الأسلوب عند تفسيره لقوله تعالى:﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾(٥)، ثم تبعه جمع من المفسرين وأشاروا إلى هذا الأسلوب ناقلين كلامه بقولهم:«قال صاحب «الكشاف»، أو: وقال الزمخشري، أو: قال جار الله».

ومن هؤلاء: الفخر الرازي (ت: ٦٠٦هـ)(٦)، والسمين الحلبي (ت: ٧٥٦هـ)(٧)، وابن عادل (ت: ٧٧٥هـ)(٨)، وأبو السعود (ت: ٩٨٢هـ)(٩)، ٩٨٢هـ)(٩)، والشهاب الخفاجي (ت: ١٠٦٩هـ)(١٠)، والآلوسي (ت: ١٢٧٠هـ)(١١).

(١) يراجع: معاني القرآن وإعرابه (٤/٤٢٨)

(٢) يراجع: الهداية إلى بلوغ النهاية (٤/٢٣٦٥)

(٣) يراجع: تفسير القرآن (٢/١٨٢) بتلخيص.

(٤) يراجع: معالم التنزيل في تفسير القرآن (٢/١٩١).

(٥) سورة:(الدخان)، الآية:(٥٦)، ويراجع: تفسير الكشاف (٤/٢٨٣).

(٦) يراجع: تفسير مفاتيح الغيب (٢٧/٦٦٦)

(٧) يراجع: الدر المصون (٩/٦٣١-٦٣٢).

(٨) يراجع: اللباب في علوم الكتاب (١٧/٣٣٦).

(٩) يراجع: تفسير إرشاد العقل السليم (٢/١٥٩)، (٤/٢٤٢)، (٥/١١)، (٥/٢٧٣).

(١٠) يراجع: حاشية الشهاب (٣/١٤٣)، (٤/١٩٠)، (٨/١٤٢).

(١١) يراجع: روح المعاني (٣/٤٨)، (٥/٥٢)، (٦/٣٣٩)، (١٣/١٣٤).

المطلب الثاني

مفهوم التعليق بالمحال لغة واصطلاحا

أولا: تعريف التعليق لغة واصطلاحا:

التعليق في اللغة: مصدر للفعل (عَلَّقَ)، وقد ورد هذا اللفظ في كتب اللغة ومعاجمها يحمل في طياته معاني عدة، قال ابن فارس (ت: ٣٩٥هـ):«العين واللام والقاف أصل كبير صحيح يرجع إلى معنى واحد، وهو أن يناط الشيء بالشيء العالي ثم يتسع الكلام فيه، تقول: علَّقْتُ الشيء أُعلِّقُه تعليقا وقد عَلِق به، إذا لزِمَه»[١]، وأجاز الإمام الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) ٥٣٨هـ) إجراء التعليق في المعقولات فقال:«علِق به وعلَّقَه: نشِب به، وعلَّق فلان أمره وأمره معلَّق: إذا لم يصرِمْه ولم يترُكْه، ومنه: تعليق أفعال القلوب»[٢].

نخلص من خلال ما سبق: أن (التعليق) في أصله اللغوي يدور معناه حول «إناطة أمر بأمر واتصاله به ولزومه إياه حِسًّا أو عقلا».

التعليق في الاصطلاح: ربط حصول مضمون جملة بحصول مضمون جملة أخرى[٣].

ثانيا: تعريف المحال لغة واصطلاحا:

المحال في اللغة: بالنظر في معاجم اللغة نجد أن الدلالة اللغوية لمادة (حَوَلَ) تدور حول معنى: الدوران والتغير والتبدل»، يقال: (استحالت) بمعنى: انقلبت عن حالها واعوجت[٤]، ويقال: أحلْتُ الكلام أُحِيلُه إحالَة إذا أفسدتُه[٥]، أفسدتُه[٥]، ومن هنا وُصِف الكلام بـ(المحال)؛ لأنه يتحول عن وجهه الصحيح

---

(١) مقاييس اللغة (١٢٥/٤)، مادة (عَلَقَ) بتلخيص.

(٢) أساس البلاغة (٦٧٤/١)، مادة (عَلَقَ).

(٣) الكليات (ص: ٢٥٥).

(٤) مختار الصحاح (ص: ٨٤)، مادة:(حَوَلَ) بتلخيص.

(١) لسان العرب (١٨٦/١١)، فصل الحاء المهملة.

الصحيح إلى وجه آخر فاسد، قال الخليل بن أحمد:«والمحال من الكلام: ما حُوِّل عن وجهه، وكلام مستحيل: محال»[١].

المحال في الاصطلاح: لقد ذكر العلماء في تعريف «المحال» اصطلاحا عدة تعريفات تختلف في عبارتها وتتفق في مضمونها، فنجد الإمام الراغب (ت: ٥٠٢هـ) قد عرفه بقوله:«ما جُمِع فيه بين المتناقِضَين، وذلك يوجد في المقال، نحو أن يقال: جسم واحد في مكانين في حالة واحدة»[٢]، وعرفه الجرجاني (ت: ٨١٦هـ) بقوله:«ما يمتنع وجوده في الخارج، كاجتماع الحركة والسكون في جزء واحد»[٣]، وقال المناوي (ت: ١٠٣١هـ):«المحال: ما لا يُتصور وجوده في الخارج»[٤].

نخلص من خلال ما سبق: أن (المحال) في أصله الاصطلاحي معناه:«ما لا صورة له في الوجود لمنافاته للمنطق ومناقضته للمعقول مناقضة بيِّنة».

ثالثا: تعريف «التعليق بالمحال»:

لم أقف على تعريف اصطلاحي لأسلوب «التعليق بالمحال» -فيما اطلعتُ عليه- بل كان العلماء يشيرون إشارات يسيرة إلى بعض المعاني والدلالات التي يفيدها هذا التعبير دون تفصيل القول في تعريفه وصوره ومواقعه، ويمكن من خلال ما سبق بيانه في تقرير المفهوم اللغوي والاصطلاحي أن نقف على مفهوم «التعليق بالمحال» بأنه:«تعليق أمر على مستحيل إشارة إلى استحالة وقوعه»، أو:«ربط حصول مضمون جملة بشيء يمتنع وجوده في الخارج».

وبهذا ندرك مدى الارتباط الوثيق بين المفهوم اللغوي والاصطلاحي

(١) العين (٢٩٨/٣)، مادة (حَوَلَ) بتلخيص.
(٢) المفردات في غريب القرآن (ص: ٢٦٧) مادة (حَوَلَ).
(٣) التعريفات (ص: ٢٠٥).
(٤) التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ٢٩٨).

لـ(أسلوب التعليق بالمحال)، فهو من جهة يُعَد أسلوبا من الأساليب العربية في الخطاب، ومن جهة أخرى فإن هذا الأسلوب يؤتى به في الكلام إذا أراد المتكلم المبالغة في نفي حدوث شيء ما، إذ يُعَلَّق حصوله على أمر مستحيل التحقق، فالقيمة البلاغية لهذا الأسلوب الفريد –أينما ورد وحيثما أتى– لم تتعد إفادته النفي والمبالغة والتأكيد.



المطلب الثالث

مواقع التعليق بالمحال

إن أسلوب «التعليق بالمحال» من الأساليب العربية المبثوثة في البيان كله على اختلاف صنوفه، فقد ورد في كلام العرب شعرا ونثرا، وفي كلام الصحابة وأمهات المؤمنين، وتواترت به سنة النبي ﷺ الصادق الأمين، وكثر مجيئه كذلك في آيات الذكر الحكيم، وفيما يلي بيان ذلك بالتفصيل:

أولا: التعليق بالمحال في كلام العرب:

من الحقائق الثابتة أن اللغة العربية لغة متنوعة الأساليب، متعددة الأفانين، ومن أبرز أساليبها أسلوب «التعليق بالمحال».

هذا الأسلوب البديع في الخطاب كان العرب قديما يستعملونه في كلامهم إذا أرادوا المبالغة في نفي حدوث شيء ما، إذ يُعَلَّق حصوله على أمر محال تحققه، وقد كثُر ذلك في كلامهم شعرا ونثرا حتى جرى فيهم مجرى المَثَل، وبيان ذلك:

(أ) التعليق بالمحال في النثر:

مما ورد من كلام العرب في ذلك قول الجاحظ: «وتقول العرب: «لا يكون ذلك حتى يُجمَع بين الأرْوَى[١] والنَّعام، وحتى يُجمَع بين الماء

(١) الأرْوَى: جمع كثرة للأُرْوِيَّة، وهي غنم الجبل، وعلة ذكر الأرْوَى والنَّعام أنه جمع بين كلمتين متناقضتين؛ لأن الأرْوَى تسكن الجبال ولا تنزل في السَّهْل من الأرض، والنَّعام تسكن السَّهْل =

والنـار، وحتـى يَشِيبَ الغراب، وحتـى يَبْيَضَّ القَـارّ»[١]، فالجـاحظ فـي كلامـه السابق قد ضرب مثلا لما لا يكون أبدا؛ لأنه لا يُجمَع بين الأرْوَى والنَّعام، ولا بين الماء والنار، الخ.

(ب) التعليق بالمحال في الشعر:

كما جرى التعليق بالمحال في كلام العرب نثرا جرى كذلك كثيرا في شعرهم، مثال ذلك:

قال الفرزدق:«إِذا زَالَ عَنْكُم أسودُ الْعينِ كُنْتُم ... كرامًا وَأَنْتُم مَا أَقَامَ ألائِمُ»[٢]، فالشاعر يذم هؤلاء بأنهم لن يكونوا كراما إلا أن يزول الجبل من موضعه، ولما كان الجبل لا يزول عن موضعه فكذلك هؤلاء المخاطَبون لا ينتقلون عن اللؤم إلى الكرم أبدا، فهذا كناية عن عدم إزالة البخل والشح عنهم[٣].

ثانيا: التعليق بالمحال في كلام صحابة سيدنا رسول الله ﷺ:

كما ورد التعليق بالمحال في كلام العرب شعرا ونثرا ورد كذلك في كلام صحابة النبي ﷺ، ومن ذلك:

قال سيدنا عمر لـ(أبي مريم الحنفي)[٤] قاتِل أخيه زيد بن الخطاب: «لا يُحِبُّك قلبي أبدا حتى تُحِبَّ الأرضُ الدمَ المسفوح»[٥]، ففي هذا الأثر علَّق سيدنا عمر حبَّه لأبي مريم الحنفي بحب الأرض للدم المسفوح، وكأنه يقول

=

ولا ترقَى في الجبال، فلا يجتمعان أبدا. تهذيب اللغة (١٢/٣)، باب: العين والنون

(١) الحيوان (٢٧٩/٥).

(٢) جمهرة الأمثال (٣٧١/١).

(٣) توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك (٩٤٠/٢)، هامش (١).

(٤) أبو مريم الحنفي: هو إياس بن ضبيح بن عبد عمرو بن عبيد بن مالك بن حنيفة بن علي بن بكر بن وائل، كان من أهل اليمامة، وكان من أصحاب مسيلمة، ثم تاب وحسن إسلامه. الطبقات الكبرى (٩١/٧)

(٥) البيان والتبيين (٢٩٩/١).

له:«لا يدخل حبُّك في قلبي أبدا حتى يدخل شيء من الدم المسفوح في الأرض»، ومعلوم أن مص الأرض للدم المسفوح محال، ومِن ثَمَّ فحُبُّه إياه لا يكون، قال الجاحظ: «والأرض لا تَنشَفُ الدمَ المسفوحَ ولا تمُصُّه، فمتى جفَّ الدمُ وتجلَّب لم تَرَه أخذ من الأرض شيئا»(١).

ثالثا: التعليق بالمحال في كلام أمهات المؤمنين:

لقد ورد التعليق بالمحال في كلام بعض أمهات المؤمنين، روى زيد بن أسلم عن عائشة أنها كانت تصلي الضحى ثمانيَ ركعات ثم تقول:«لو نُشِرَ لي أَبَوَايَ ما تركتُهُن»(٢)، ففي هذا الأثر علقت السيدة عائشة تَرْكَها لركعات الضحى بإحياء أبويها بعد وفاتهما، وهذا محال، قال الإمام الطِّيبي:«هو من باب التعليق بالمحال، ولذلك خصته بقولها: «لي» أي: لو فُرِضَ إحياؤهما لي لم أتركها، فكيف وأن ذلك محال عادة؟ أي: لا أدَعُ هذه اللذة لتلك اللذة»(٣).

رابعا: التعليق بالمحال في الأحاديث القدسية:

مما ورد فيه التعليق بالمحال في الأحاديث القدسية ما روي عن أبي هند الداري(٤) قال: سمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول:«قال الله تبارك وتعالى: «مَن لم يرض بقضائي ويصبر على بلائي فليلتَمِس ربًّا سواي»»(٥).

ففي هذا الأثر تعليق بالمحال في قول الله تبارك وتعالى:«فليلتَمِس ربًّا سواي»؛ لأنه محال أن يتخذ العبد ربًّا غير الله ﷻ إذ لا رب سواه، قال الصنعاني:««فليلتَمِس ربًّا سواي»، هذا تعليق بالمحال، فيتعين الرضا والصبر

---

(١) المصدر السابق (٢٩٩/١).

(٢) موطأ الإمام مالك (١٥٣/١، ح: ٣٠)، كتاب: قصْر الصلاة في السفر، باب: صلاة الضحى، قال المحقق:«إسناده صحيح».

(٣) الكاشف عن حقائق السنن (١٢٤٣/٤).

(٤) أبو هند الداري: اختُلِف في اسمه، قيل: برير، وقيل: بر بن عبد الله بن ربيعة بن عدي بن الدار، من بني الدار بن هانئ بن حبيب. الاستيعاب (١٧٧٣/٤)

(٥) المعجم الكبير (٣٢٠/٢٢، ح: ٨٠٧).

قال المناوي:«إسناده ضعيف». التيسير بشرح الجامع الصغير (١٨٢/٢)

لأنه لا رب سواه تعالى»(١).

خامسا: التعليق بالمحال في كلام النبي ﷺ:

لقد كثر مجيء «التعليق بالمحال» في كثير من الأحاديث الشريفة، من ذلك على سبيل المثال:

ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:«لا يَلِجُ النارَ رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضَّرْع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودُخَان جهنم»(٢)، ففي هذا الحديث تعليق بالمحال في قول النبي ﷺ:«لا يَلِجُ النارَ رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضَّرْع»، وبيان ذلك: أن الباكي من خشية الله لا يَلِجُ النارَ إلا إذا عاد اللبن في الضَّرْع، وعودة اللبن في الضَّرْع بعد أن خرج منه محال، وعليه يكون ولوج الباكي من خشية الله النار أمرا مستحيلا.

وقد نبَّه عدد من الشراح إلى التعليق بالمحال في هذا الحديث، قال ابن علان البكري (ت: ١٠٥٧هـ): «قوله:«حتى يعود اللبن في الضَّرْع» أي: يدخل من مسامه إليه، وذلك محال عادة، فتعلق ولوج الخائف الوَجِل من الله تعالى العارف بجلاله القائم بما تقتضيه الخشية من امتثال الأوامر واجتناب النواهي بعود اللبن إلى الضرع»(٣)، وقال المباركفوري (ت: ١٣٥٣هـ):««حتى يعود اللبن في الضَّرْع» هذا من باب التعليق بالمحال، كقوله تعالى:﴿ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾»(٤).

سادسا: التعليق بالمحال في التراث البلاغي:

(١) التنوير شرح الجامع الصغير (٥٧٩/٧).

(٢) سنن الترمذي (١٧١/٤، ح: ١٦٣٣)، أبواب فضائل الجهاد، باب: ما جاء في فضل الغبار في سبيل الله، قال الترمذي:«هذا حديث حسن صحيح».

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٣٦٤/٤).

(٤) سورة:(الأعراف)، من الآية:(٤٠)، وينظر: تحفة الأحوذي (٢١٥/٥).

اقترن أسلوب التعليق بالمحال في كتب البلاغيين بفن من فنون علم البديع، وهو «تأكيد المدح بما يشبه الذم»(١)، ويُعَد ابن رشيق القيرواني (ت: ٤٦٣هـ) أول من ألمح إلى بناء هذا الفن البديعي على التعليق بالمحال، وتمثلت إلماحته في تعليقه على بيت النابغة الذبياني:

ولا عَيبَ فيهِم غير أن سيوفَهم ... بهن فُلول من قِرَاع الكتائِبِ(٢)

فقال:«فجعل فلولَ السيف عيبا، وهو أوكد في المدح»(٣).

فهذا الكلام من ابن رشيق فيه إشارة من طرف خفي إلى التعليق بالمحال، ولم يزد على جعْلِه يفيد معنى التوكيد، وبيان ذلك: أنه لما كان المستثنى وهو (تَكَسُّر السيوف من أثر مضاربة الجيوش) محالا إثبات كونه عيبا صار إثبات شيء من العيب للمتحدَّث عنهم محالا، وقد فصل الخطيب القزويني (ت:٧٣٩هـ) هذا الكلام ونص على مصطلح التعليق بالمحال مبيِّنا وجه إفادته التوكيد، وذلك عند تعليقه على بيت النابغة بقوله:«أي: إن كان فُلول السيف من قِراع الكتائب عيبا، فأثبتَ شيئا من العيب على تقدير أن فلول

---

(١) تأكيد المدح بما يشبه الذم: أن يبالغ فى المدح إلى أن يأتى بعبارة يتوهم السامع فى بادئ الأمر أنه ذم، وهو ضربان: أفضلهما -أى: أبلغهما- أن ينفى عن الممدوح صفة ذم، ويستثنى من صفة الذم المنفية صفة مدح مقدر دخول تلك الصفة الحميدة فى صفة الذم، ومنه البيت السابق للنابغة الذبياني.

الثانى: أن يثبت لشئ صفة مدح وتُعقَّب بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى له، كقوله ﷺ:«أنا أفصح من نطق بالضاد بَيْدَ أني من قريش». عروس الأفراح (٢٦٩/٢-٢٧١) بتلخيص، والحديث المذكور أخرجه السخاوي في المقاصد الحسنة (ص: ١٦٧) ثم قال :«معناه صحيح، ولكن لا أصل له».

ويضاف إلى هذين النوعين نوع ثالث وهو: أن يؤتَى بمستثنى فيه معنى المدح معمول الفعل فيه معنى الذم، فيتفرع للعمل فيه ويكون الاستثناء مفرغا كما في قوله تعالى:﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾[سورة:(المائدة)، من الآية:(٥٩)]. البلاغة الصافية في المعاني والبيان والبديع (ص: ٢٧٣)

(٢) ديوان النابغة الذبياني (ص: ٤٤).

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه (٤٨/٢).

السيف منه -وذلك محال- فهو في المعنى «تعليق بالمحال»، كقولهم:(حتى يَبيَضَّ القَار)، فالتأكيد فيه من وجهين: أحدهما: أنه كدعوى الشيء ببينة[(١)]، والثاني: أن الأصل في الاستثناء أن يكون متصلا، فإذا نطق المتكلم بـ(إلا) أو نحوها توهم السامع قبل أن ينطق بما بعدها أن ما يأتي بعدها مُخرَج مما قبلها، فيكون شيء من صفة الذم ثابتا وهذا ذم، فإذا أتت بعدها صفة مدح تأكد المدح لكونه مدحا على مدح»[(٢)]، ففي هذا الكلام عد الخطيب القزويني «تأكيد المدح بما يشبه الذم» مقرونا بأسلوب «التعليق بالمحال».

وهذا الأسلوب البديعي -أي: تأكيد المدح بما يشبه الذم- ذكر البلاغيون له أسماء متعددة منها:(الرجوع، أو الاستثناء، أو التوجيه، أو تأكيد المدح بما يشبه الذم، وهو المشهور)[(٣)]، وسماه بعض المفسرين:(تأكيد الشيء بما يشبه نقيضه أو ضده)[(٤)].

سابعا: التعليق بالمحال في القرآن الكريم:

لقد نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، واحتوى على أعذب الألفاظ

---

(١) أي: كأنه استدل على أنه لا عيب فيهم بأن ثبوت عيب فيهم معلَّق بكون فلول السيوف عيبا، وهو محال. عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (٢/٢٧٠)

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة (٢/٥٢٤)، والتلخيص في علوم البلاغة (ص: ٩٨).

(٣) يراجع: البديع في البديع لابن المعتز (ص: ١٥٧)، والصناعتين (ص: ٤٠٨).

(٤) يراجع: حاشية الشهاب (٣/١١٨)، والتحرير والتنوير (٣/٥٨).

ما ذكره بعض المفسرين من تسمية هذا الأسلوب البديعي -أعني: تأكيد المدح بما يشبه الذم- بأسلوب «تأكيد الشيء بما يشبه نقيضه أو ضده» عام يشمل كلا من أسلوبي (تأكيد المدح بما يشبه الذم، وتأكيد الذم بما يشبه المدح)، بل إن هناك آيات لا يمكن الحكم عليها بأنها من هذين الأسلوبين وإنما هي من باب «التعليق بالمحال»، فهذا النوع أعم من المدح والذم، كما في قوله تعالى:﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء، من الآية:(٢٢)]، وقوله تعالى:﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾، فلا مدح ولا ذم في هاتين الآيتين وإنما هو تعليق بالمحال، وقد ذُكِرَا في باب (تأكيد المدح بما يشبه الذم) من باب الأعم الأغلب.

وأفصحها وأبلغها، وهذه الألفاظ وإن كانت معهودة عند العرب واستعملوها فيما بينهم وجاءت على ألسنة شعرائهم، إلا أن القرآن الكريم قد فاق وعلا جميع كلامهم، وما ذاك إلا لحسن سبكه، وجودة رصفه، وروعة تأليفه، يقول الرماني:«أتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة، لها منزلة في الحسن تفوق به كل طريقة»[(١)].

هذا ومن خلال التدبر في آيات الذكر الحكيم وجدتُّ أسلوب «التعليق بالمحال» واردا في بعض آياته، ولعل من أكثر الآيات التي جعلها المفسرون شاهدا لهذا المصطلح قوله تعالى:﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾[(٢)]، وقوله تعالى:﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾[(٣)]، وتأسيسا على ما تقدم سأذكر في المباحث التالية-إن شاء الله- جملة من الآيات التي بُنِيَت على هذا الأسلوب الفريد.



المطلب الرابع

صور التعليق بالمحال في آيات الذكر الحكيم

بإمعان النظر في آيات القرآن الكريم التي ذكر العلماء أن أسلوب «التعليق بالمحال» قد تحقق فيها تبين أن هذا الأسلوب الفريد قد جاء على صور متعددة، فقد تلبَّس في اثني عشر موضعا بـ(النفي والاستثناء)، وفي ثمانية مواضع بـ(الشرط)، وفي موضعين بـ(النفي)، وتلبَّس بـ(حتى)، و(لعل) في موضع واحد لكل منهما، وقد قمتُ بحصر وإحصاء هذه المواضع من خلال أقوال المفسرين الذين نبهوا إلى بنائها على التعليق بالمحال تلميحا أو تصريحا، وفيما يلي بيان ذلك مفصلا من خلال المباحث الآتية.



---

(١) النكت في إعجاز القرآن (ص: ١١١).

(٢) سورة:(الأعراف)، من الآية:(٤٠).

(٣) سورة:(الدخان)، الآية:(٥٦).

المبحث الأول

تلبُّس التعليق بالمحال بـ«النفي والاستثناء»(١)

وفيه اثنا عشر موضعا

الموضع الأول

قال تعالى:﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾(٢).

يحسن بي قبل بيان وجه التعليق بالمحال في هذه الآية وذكر أقوال أهل التفسير فيها أن أشير إلى بيان سبب نزولها للوقوف على معناها.

لقد أورد المفسرون في سبب نزول هذه الآية عدة روايات، منها: ما رواه ابن أبي حاتم بسنده عن رجل من الأنصار قال:«توفي أبو قيس(٣) وكان من صالِح الأنصار، فخطب ابنه قيس امرأتَه، فقالت: إنما أعُدُّك ولدا وأنت مِن صالِحي قومِك، ولكِنْ آتِي رسولَ الله ﷺفأستأْمِرُه، فأتَتْ رسول الله ﷺفقالت: يا رسول الله، إن أبا قيس توفي، فقال لها: خيرا، فقالت: إن ابنه قيسا خطبني وهو من صالِحي قومِه، وإنما كنتُ أعُدُّه ولدا، فما ترى؟ قال لها: ارجعي إلى بيتِك، قال: فنزلت هذه الآية:﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾»(٤).

---

(١) مجيء النفي والاستثناء في الآية الكريمة من باب الأعم الأغلب، وإلا فهناك مواضع ليس فيها نفي كما سيأتي.

(٢) سورة:(النساء)، الآية:(٢٢).

(٣) أبو قيس: هو أبو قيس صيفي بن الأَسْلَت الأنصاري، لما قدِم رسول الله ﷺالمدينة هرب إلى مكة فكان فيها مع قريش إلى عام الفتح، والصحيح أنه لم يُسْلِم، وقيل: إنه أراد الإسلام لما هاجر النبي ﷺ، وقيل: إنه سُمِع عند الموت يوحِّد الله تعالى، مات على رأس عشرة أشهر من الهجرة، وقد أراد قيس أن يتزوج امرأة أبيه «كبشة بنت معْن بن عاصم» بعد وفاة أبيه. أسد الغابة (٥/٢٥٠)

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (٣/٩٠٩)، وأسباب النزول (ص: ١٥٢).

قال الإمام القرطبي:«كان الناس يتزوجون امرأة الأب برضاها بعد نزول قوله تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهًا ﴾[1] حتى نزلت هذه الآية:﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم ﴾، فصار حراما في الأحوال كلها؛ لأن النكاح يقع على الجماع والتزوج، فإن كان الأب تزوج امرأة أو وطئها بغير نكاح حُرِّمَت على ابنه، وقد كان في العرب قبائل قد اعتادت أن يُخْلِف ابن الرجل على امرأة أبيه، وكانت هذه السيرة في الأنصار لازمة، وكانت في قريش مباحة على التراضي، فنهى الله المؤمنين عما كان عليه آباؤهم من هذه السيرة»[2].

وبهذا يتبين أن الآية الكريمة قد أُنزِلت لتحرِّم على الأبناء أن يتزوجوا من النساء اللائي كن أزواجا لآبائهم تكرمة وإعظاما واحتراما لهم، وخُص هذا النكاح بالنهي ولم يُذكَر مع سائر المحرمات في الآية التالية؛ مبالغة في الزجر عنه لأنه كان فاشيا في الجاهلية، ولذلك ذمه الله أقبح ذم فسماه فاحشة وجعله مبغوضا أشد البغض[3].

والنهي الوارد في هذه الآية من تحريم مثل هذا النكاح قد دلت عليه الآية دلالة صريحة، فأول ذلك دخول ﴿لَا﴾ الناهية على الفعل المضارع ﴿تَنكِحُواْ ﴾، وهذا يفيد الدلالة على ترك مثل هذا النكاح والمبالغة في الزجر عنه؛ لأن «النهي يتعلق بالمستقبل، والفعل المضارع مع النهي مدلوله إيجاد الحدث في المستقبل، وهذا المعنى يفيد النهي عن الاستمرار على نكاحهن إذا كان قد حصل قبل ورود النهي»[4].

وأعلى طرق الدلالة على القطع بالنهي عن نكاح ما نكح الآباءُ من

(١) سورة:(النساء)، من الآية:(١٩).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٥/١٠٣-١٠٤) بتلخيص.
(٣) روح المعاني (٢/٤٥٤)، وتفسير المراغي (٤/٢١٨).
(٤) التحرير والتنوير (٤/٢٩١).

النساء وآكِدُها بناء الآية الكريمة على أسلوب التعليق بالمحال المتلبِّس بـ(الاستثناء) في قوله تعالى:﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ ﴾، وقد اختلف المفسرون في توجيه هذا الاستثناء والمعنى المترتب عليه على النحو التالي:

١) يرى جمهور المفسرين أن الاستثناء في قوله تعالى:﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ ﴾ استثناء منقطع(١) من النكاح المنهي عنه في قوله تعالى:﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم ﴾، ووجه الانقطاع: أن المستثنى ماض والمستثنى منه مستقبل(٢)، والماضي لا يُستثنَى من المستقبل، ووجه استثنائه منه: وقوعه قبله وصحبته له في نفوس القوم الذين وقع منهم هذا الفعل في الماضي، فاستُثنِي لبيان أن ذلك الأمر وتبعاته لا علاقة له بالماضي الذي غفره الله لأهل الإيمان، وعليه فالمعنى: ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء لأنه من أفعال الجاهلية القبيحة، لكن ما قد سلف ومضى منه قبل نزول التحريم فإنه معفو عنه ولا إثم فيه ولا مؤاخذة عليه، أو المعنى: لكن ما قد سلف فاجتنبوه ودعوه فإنكم مؤاخَذون به، وهو ينتهي بهذا التحريم، وعليه فمن كان متزوجا ممن كانت زوجة لأبيه فإنها حرام عليه من وقت نزول ذلك النص الكريم ويجب عليه أن يفارقها(٣)؛ لأن النهي في الآية محمول على النهي عن الاستمرار على هذا النكاح إذا كان قد حصل قبل ورود النهي.

---

(١) الاستثناء المنقطع: ألا يكون المستثنى من جنس المستثنى منه، ويُقَدَّر بـ(لكِن)، مثل:(قام الخيل إلا حمارا). شرح الأزهرية (ص: ٤٢)

(٢) المستثنى منه: الزمن المستقبل المنهي فيه عن نكاح مَن تزوجها الأب في قوله:﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم ﴾، والمستثنى: الزمن الماضي الوارد في قوله تعالى:﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ ﴾، وهو ليس من جنس المستثنى منه.

(٣) يراجع: تفسير البغوي (٥٨٩/١)، والتبيان في إعراب القرآن (٣٤٣/١)، والبحر المحيط (٥٧٥/٣)، وتفسير آيات الأحكام للسايس (ص: ٢٤٩).

نخلص من خلال ما سبق أن الاستثناء هنا قد أفاد فائدة عظيمة، وهي أن ما مضى من هذا النكاح القبيح قبل التحريم فإنه تثبت به أحكام النكاح من النسب وغيره من الأحكام، وعليه يكون ولد مَن نكح زوجة أبيه قبل التحريم ثابت النسب وليس ولد زنا، أما ما كان من هذا النكاح بعد التحريم فإنه لا يكون نكاحا البتة، بل لا يكون إلا سفاحا، وبالتالي لا يترتب عليه أحكام النكاح من لحوق النسب، بل الولد فيه يكون ولد زنا، وفي هذا يقول ابن عاشور:«والظاهر أن قوله:﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾قُصِدَ منه بيان صحة ما سلف من ذلك في عهد الجاهلية، وتعذر تداركه الآن لموت الزوجين من حيث إنه يترتب عليه ثبوت أنساب، وحقوق مهور ومواريث، وأيضا بيان تصحيح أنساب الذين وُلِدُوا من ذلك النكاح»[1].

٢) يرى بعض المفسرين أن الاستثناء في قوله تعالى:﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ استثناء متصل[2]، ووجه الاتصال: أن المستثنى وهو قوله: ﴿مَا قَدْ سَلَفَ﴾ من جنس المستثنى منه وهو قوله:﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾، وعليه فالمعنى: ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا اللائي مضَين وفَنَين إن أمكنكم أن تنكحوه، وهذا محال، أي: إن كنتم فاعلين مثل هذا النكاح فانكحوا ما قد سلف من نساء الآباء البائدة، كأنه يوهم أنه يرخص لهم بعضه فيجد السامع ما رُخِّص له متعذَّرا فيتأكد النهي[3].

وعلى هذا المعنى تكون الآية الكريمة من باب «التعليق بالمحال»، وممن حملها على هذا الأسلوب البديع الإمام أبو السعود، حيث صرح بهذا الأسلوب مبينا فائدته بقوله:«﴿مَا قَدْ سَلَفَ﴾استثناء من ﴿مَا نَكَحَ﴾مفيد

(١) التحرير والتنوير (٢٩٣/٤).
(٢) الاستثناء المتصل: ما كان فيه المستثنى من جنس المستثنى منه، مثل:(ربح التجار إلا خالدا). الموجز في قواعد اللغة العربية (ص: ٣١٢)
(٣) يراجع: تفسير روح المعاني (٤٥٦/٢)، والتحرير والتنوير (٢٩٣/٤).

للمبالغة في التحريم بإخراج الكلام مخرج التعليق بالمحال[١]، والمعنى: لا تنكحوا حلائل آبائكم إلا مَن ماتت منهن[٢]، والمقصود سد طريق الإباحة بالكلية، ونظيره قوله تعالى:﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾»[٣].

وتتجلى بلاغة التعليق بالمحال في هذه الآية كما قال علماؤنا في المبالغة في النهي عن نكاح زوجات الآباء وتحريمه وسد الطريق إلى إباحته بالكلية، وهذه المبالغة وإن كانت ملازمة للتعليق بالمحال عموما فإن لنا أن نفسر سبيل حصولها حين تلبس أسلوب التعليق بالمحال بـ(النهي والاستثناء)، وبيان ذلك: أن قوله تعالى:﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾قاطع بعموم النهي عن نكاح زوجات الآباء، فلما ولِيَ النهيَ أداةُ الاستثناء ﴿إِلَّا ﴾ آذنَت بأن ما بعدها يَشْرَع سبيلا لتحقق النكاح المنهي عنه، فلما تبين أن ما بعده وهو قوله تعالى:﴿مَا قَدْ سَلَفَ ﴾أي: مَن مات منهن –محال الوقوع– كانت المبالغة أشد والتوكيد أمتن، ولعل مما يؤكد هذا المعنى أيضا دخول حرف ﴿قَدْ ﴾ على الفعل ﴿سَلَفَ ﴾فإنه يفيد التأكيد وتحقيق معنى المضي، ولذلك ختم الله ﷻ الآية ببيان أن هذا النوع من النكاح في غاية القبح والسوء فقال:﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾أي: إن هذا النوع من النكاح كان خصلة بالغة الحد في القبح والفحش، وكان ممقوتا مبغوضا عند الله وعند ذوي العقول السليمة، وبئس طريقا طريق ذلك النكاح، إذ فيه هتْك لحرمة الأب

(١) استعمال هذا الأسلوب في تحريم مِثل هذه العادة يتناسب بصورة كبيرة مع طبيعة القوم حينئذ؛ لأن هذه العادة كانت منتشرة في الجاهلية، وتحريمها من غير بيان حكم ما قد سلف لا يتأتى، بل يستدعي سؤالا مفاده: ما حكم مَن صدر منهم هذا النكاح قبل النهي؟ فقيل:﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾، لذا كان هذا الأسلوب فيه خير بيان.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٣/٩١٠)

(٣) إرشاد العقل السليم (٢/١٥٩) بتلخيص.

وتقطيع للرحم التي أمر الله بوصلها[1]، فوصْف هذا النكاح بهذه الصفات الثلاث يدل على أنه من أشد المحرمات وأقبحها، وكفى بهذا الوصف زاجرا عنه.

الموضع الثاني

قال تعالى:﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[2].

نزلت هذه الآية وما قبلها في يهود المدينة، فعن ابن عباس قال: «كان رفاعة بن زيد بن التابوت من عظماء اليهود، وإذا كلم رسولَ الله ﷺ لوَى لسانَه وقال: أرْعِنا سمعَك يا محمد حتى نفهمَك، ثم طعن في الإسلام وعابه، فأنزل الله فيه:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴾ إلى قوله تعالى:﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾»[3].

موضع التعليق بالمحال في الآية الكريمة:

يتجلى هذا الأسلوب في الآية عند قوله تعالى:﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، وقد اختلف المفسرون في إعراب لفظ﴿ قَلِيلًا ﴾والمراد به هنا على أقوال:

الأول: أنه منصوب على الاستثناء من ضمير المفعول في قوله:﴿ لَعَنَهُمُ ﴾ أي: ولكن لعنهم الله بكفرهم إلا نفرا قليلا منهم آمنوا فلم يُلعَنوا، وهم عبد الله بن سلام وأصحابه، وقيل: هم الذين علِم الله منهم أنهم سيؤمنون بعد ذلك، وعلى هذا الوجه فلفظ القليل صفة للقوم.

الثاني: أنه منصوب على الوصفية لمصدر محذوف، أي: ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا إيمانا قليلا، وعلى هذا الوجه فلفظ القليل صفة

(١) التفسير الوسيط، د/ محمد سيد طنطاوي (١٠١/٣) بتلخيص.
(٢) سورة:(النساء)، الآية:(٤٦).
(٣) سورة:(النساء)، الآيات (٤٤: ٤٦)، وينظر: لباب النقول (ص: ٥٨).

للإيمان، وفي المراد بقلة الإيمان هنا وجهان:

الوجـــه الأول: أن يـراد بها:(الضـعف والركاكـة)، أي: إيمـانهم إيمـان ضـعيف ركيك لا يُعبَأ بـه ولا يغنـي عنـهم من عذاب الله شيئا، وهـو الإيمـان ببعض الآيات والكتب والرسل.

الوجـه الثـاني: أن يراد بها كما عبر الإمامان الزمخشري وابن عطية وغيرهما:(العَدَم بالكلية)[١]، أي: أنهم لا يؤمنون البتة[٢].

وعلـى المعنـى الأخيـر يكـون قولـه تعـالى:﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾مـن بـاب «التعليق بالمحال»، وممن حمل الجملة الكريمة على هذا الأسلوب وصـرح بـه الإمامان:(الشـهاب الخفاجي، والآلوسـي)، حيث قـالا بعد أن ذكرا الخـلاف فـي إعـراب ﴿قَلِيلًا ﴾والمـراد بـه فـي هـذه الآيـة:«والمـراد: أنـهم لا يؤمنـون إلا إيمانـا معـدوما، إمـا علـى حـد:﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾أي: إن كـان المعـدوم إيمانــا فهـم يُحْـدِثُون شـيئا مـن الإيمـان، فهـو مـن «التعليـق بالمحال»»[٣].

وأشـار ابن عاشـور أيضـا إلـى وجـه التعليق بالمحـال فـي هذه الآيـة لكن رده إلى باب «تأكيد الشيء بما يشبه ضده» فقال:«ومعنى:﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أنـهم لا يؤمنون أبدا، فهو من تأكيد الشـيء بما يشبه ضـده، وأُطلِق القلةُ علـى العَدَم»[٤].

وبنـاء علـى مـا سبق يتبين أن بلاغـة التعليق بالمحـال فـي قولـه تعـالى: ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ تتجلـى فـي نفـي الإيمان بالكلية عن هؤلاء اليهود الملعونين وأنـهم لا يؤمنون أبدا، فالجملة الكريمة بهذا قد حكمت بأنـهم لما قالوا ما هو شر

(١) تفسير الكشاف (٥١٨/١)، والمحرر الوجيز (٦٣/٢).
(٢) يراجع: زاد المسير (٤١٦/١)، والفريد في إعراب القرآن المجيد (٢٧٩/٢).
(٣) حاشية الشهاب (١٤٣/٣)، وروح المعاني (٤٧/٣-٤٨).
(٤) التحرير والتنوير (٧٧/٥).

وباطل، وآمَنوا ببعض الآيات والكتب والرسل وكفروا ببعضها قد صار إيمانهم ذلك إيمانا معدوما غير نافع لهم؛ لأنهم إذا لم يؤمنوا بجميع الأنبياء والكتب كافة لا يُقبَل منهم، وعلى هذا يكون في قوله تعالى:﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ما يفضح هذا الإيمان الذي هم عليه؛ لأن إيمانهم مشوب بالضلال متلبس بالكفر[1]، كما أن الإيمان كُلٌّ لا يتجزأ، ولا يمكن وصفه بالقلة أو الكثرة، لذلك فأسلوب «التعليق بالمحال» هنا قد أفاد عدمَ إيمانهم واستحالتَه، وأنهم لا يؤمنون إيمانا خالصا نافعا.

الموضع الثالث

قال تعالى:﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[2].

نزلت هذه الآية وما قبلها في اليهود، فعن ابن عباس قال:«أتى نفر من اليهود إلى رسول الله ﷺ فسألوه عمن يؤمن به من الرسل، فقال: أومن بالله وما أُنزِل إلينا وما أُنزِل إلى إبراهيم وإسماعيل إلى قوله:﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[3]، فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا: والله ما نعلم أهل دين أقل حظا في الدنيا والآخرة منكم ولا دينا شرا من دينكم، فأنزل الله تعالى:﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا...»[4].

موضع التعليق بالمحال في الآية الكريمة:

يتجلى هذا الأسلوب في الآية عند قوله تعالى:﴿ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾، وقد جاء هذا الأسلوب في صورة استفهام إنكاري بمعنى النفي[5]، فالله

(١) التفسير القرآني للقرآن (٨٠٧/٣) بتلخيص.

(٢) سورة:(المائدة)، الآية:(٥٩).

(٣) سورة:(البقرة)، من الآية:(١٣٦).

(٤) أسباب النزول (ص: ٢٠٣).

(٥) الاستفهام الإنكاري: هو الذي يُسأل به عن شيء غير واقع ولا يمكن أن يحصل، وهذا النوع =

تعالى يحكي في هذه الآية مقالة أهل الكتاب أنهم قد عابوا وأنكروا على المؤمنين إيمانهم بالله وبجميع الكتب السماوية المنزلة، وهذا الإيمان في حد ذاته أمر لا يعاب ولا يُنقَم، بل يُمدَح عليه صاحبُه ويُكرَم، وإذا كان وصْف الإيمان بالله وبالكتب المنزلة بالعيب أمرا مستحيلا، فيكون ثبوت العيب منهم للمؤمنين أيضا مستحيلا، ولهذا وصمهم الله في ختام الآية بقوله:﴿وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ﴾، فهذه كما قال أبو حيان:«محاورة لطيفة وجيزة تنبِّه الناقِمَ على أنه ما نَقَم عليه إلا ما لا يُنقَم ولا يُعَد عيبا»(١).

وعلى هذا المعنى نرى في الآية الكريمة صفة ذم منفية استُثْنِي منها صفة مدح، فالفعل﴿تَنقِمُونَ﴾فيه معنى العيب والذم، والمستثنى بـ﴿إِلَّآ﴾وهو مصدر الإيمان المؤول من﴿أَنۡ ءَامَنَّا﴾يتضمن صفة مدح على الاستثناء المفرغ(٢)، وهو في الوقت ذاته مفعول للفعل﴿تَنقِمُونَ﴾أي: ما تكرهون من جهتنا إلا الإيمان(٣)، وهذا الأسلوب البديعي مما تأتي فيه صفة المدح واقعة بعد أداة الاستثناء معمولا لفعل فيه معنى الذم يُعَد ضربا آخر من «تأكيد المدح بما يشبه الذم»(٤)، و«التعليق بالمحال» مقرون في التراث البلاغي بهذا الفن.

وممن حمل الآية الكريمة على هذا الأسلوب البديعي الإمام ابن عطية، حيث قاس الوجه البلاغي في هذه الآية على البيت المشهور للنابغة الذبياني

=

يتضمن معنى النفي؛ لأن أداة الاستفهام فيه بمنزلة أداة النفي في أن الكلام الذي تدخل عليه منفي المعنى. شرح الأشموني لألفية ابن مالك (٥٠٣/١)

(١) البحر المحيط في التفسير (٣٠٣/٤).

(٢) الاستثناء المفرغ: هو الذي لم يُذكَر فيه المستثنى منه وكان الكلام غير موجب نحو قوله تعالى:﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾[آل عمران:(١٤٤)]، فـ(إلا) هنا لا عمل لها، بل الحكم عند وجودها مثله عند فقدها. أوضح المسالك (٢٢٢/٢)

(٣) الدر المصون (٣١٧/٤).

(٤) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح (٦٢٣/٤)، وعلم البديع (ص: ١٦٦).

فقال:«وهذه الآية من المحاورة البليغة الوجيزة، ومثلها قوله تعالى:﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ﴾[1]، ونظير هذا الغرض -أي: تأكيد المدح بما يشبه الذم- في الاستثناء قول النابغة: «ولا عيب فيهم غير أن سيوفَهم ... بهن فُلول من قِراع الكتائب»»[2].

وألمح الإمام القاسمي أيضا إلى هذا الوجه البلاغي وصرح به فقال:«في الآية تسجيل على أهل الكتاب بكمال المكابرة والتعكيس، حيث جعلوا الإيمان بما ذُكِرَ موجبا لنقمه مع كونه في نفسه موجبا لقبوله وارتضائه، فمعنى الآية: ليس شيء يُنقَم من المؤمنين، فلا موجب للاستهزاء، وهذا مما تقصد العرب في مثله:«تأكيد النفي والمبالغة فيه بإثبات شيء»، وذلك الشيء لا يقتضي إثباته فهو منتف أبدا، ويسمى مثل ذلك عند علماء البيان:«تأكيد المدح بما يشبه الذم» وبالعكس»[3].

وبهذا يتبين أن دعوى وصف أهل الكتاب لإيمان المؤمنين بالنقم والذم والعيب دعوى زائفة لم تلق فهما ولا قبولا والمؤمنون منها بَراء؛ لأن الإيمان بالله وبجميع الكتب المنزلة نعمة عظيمة ومنة جليلة «وكون الإيمان أصل المناقب وقاعدة النجاة والشرف الدنيوي والأخروي مما لا يخالف فيه عاقل، فلا يضر كون أهل الكتاب يعتقدونه عيبا بالنسبة للمؤمنين»[4]، بل الأوْلى أن يوصفوا هم بالذم والتوبيخ والعيب والإنكار لفسقهم وضلالهم وانتكاس فطرتهم، «فالاستثناء بعد الاستفهام الخارج مخرج التوبيخ على ما عابوا به المؤمنين من الإيمان يوهم أن ما يأتي بعده مما يوجب أن يُنقَم على فاعله مما يُذَم به، فلما أتى بعد الاستثناء ما يوجب مدح فاعله كان الكلام متضمنا تأكيد المدح بما

---

(١) سورة:(البروج)، من الآية:(٨)، وسيأتي بيانها.

(٢) المحرر الوجيز (٢/٢١٠).

(٣) تفسير محاسن التأويل (٤/١٨٠).

(٤) حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني (٤/١٣٠) بتصرف.

يشبه الذم»[١].

يُفهَم من كلام الإمام السيوطي أن بلاغة الأسلوب القرآني في هذه الآية تظهر بقوة في مخاطبة أهل الكتاب ومن مجموع الاستفهام والاستثناء في الآية الكريمة، فحينما نقرأ قوله تعالى:﴿هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ يُظَن أن هناك أمورا ستُذكَر فيما بعد تدل على هذا الاستفهام والمعنى المستفاد من ﴿تَنقِمُونَ﴾ بذكر ما يعيب المؤمنين، فيُفاجَأ القارئ أو المستمع أن ما ذُكِرَ بعد أداة الاستثناء لا يستحق العيب والإنكار بل يوجب مدح فاعله، وذلك بإبراز صفة فيها مدح للمؤمنين وإعلاء لشأنهم، ولذلك حسُن موقع الإنكار التعجبي بقوله:﴿هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾، إذ يدل هذا الاستفهام على مدح المنتَقَم منهم وهم (المؤمنون)، وذم المعارضين لهم وهم (أهل الكتاب).

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى:

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَا ﴾[٢].

يحكي الله تعالى في هذه الجملة مقالة سحرة فرعون أنهم لما آمنوا بموسى عليه السلام قالوا لفرعون: وما تكره منا وتعيب علينا إلا الإيمان بالله وبآياته لما جاءتنا، مع أن ما تكرهه منا وتعيبه علينا هو أعظم محاسننا[٣].

إذا نظرنا إلى ما ينقمه فرعون من هؤلاء السحرة وجدنا أنه الإيمان، فهو بالنسبة إليه وفي نظره فقط عيب حقيقي، لكن هذا الإيمان عند المؤمنين ليس عيبا يستوجب الذم والإنكار، بل يُعَد موضعا للاعتزاز والإكرام، لكن فرعون لفسقه وضلاله وانتكاس فطرته عاب على السحرة المؤمنين إيمانهم، وجعل التمسك منهم بالإيمان موجبا للذم مع أن الأمر بالعكس، فكأن وصْفه لإيمان هؤلاء السحرة بالعيب أمر مستحيل، وبالتالي يكون ثبوت العيب والذم منه لهم

(١) الإتقان في علوم القرآن (٣/٣٠٣).

(٢) سورة:(الأعراف)، من الآية:(١٢٦).

(٣) تفسير البيضاوي (٣/٢٩)، والتفسير الوسيط، د/ محمد سيد طنطاوي (٥/٣٥٢).

أيضا مستحيلا.

وفي هذا يقول الإمام الرازي:«فبينوا أن الذي كان منهم -أي: الإيمان- لا يوجب الوعيد ولا إنزال النِّقمة بهم بل يقتضي خلاف ذلك، وهو أن يُتَأَسَّى بهم في الإقرار بالحق والاحتراز عن الباطل عند ظهور الحجة»(١)، وهذا من باب «تأكيد المدح بما يشبه الذم»(٢).

وشبيه بهذه الآية أيضا قوله تعالى:

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ﴾(٣).

الجملة الكريمة محل البحث في هذه الآية قوله تعالى:﴿ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ﴾، أي: وما كرهوا وما أنكروا من أمر الإسلام شيئا إلا أنهم بسببه أغناهم الله ورسوله من فضله بالغنائم وغيرها من وجوه الخيرات(٤)، روي عن عمرو بن دينار قال:«سمعت عكرمة يقول: قَتَل رجل من بني عدي بن كعب رجلا من الأنصار، فقضى النبي ﷺ في ديته باثني عشر ألف درهم، فقال الله ﷻ:﴿ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ يعني: ما أخذوا من الدية»(٥).

يحكي الله في هذه الجملة ما اتصف به المنافقون من جحود ونكران ومقابلة الحسنة بالسيئة، وذلك أنهم كانوا حين قدِم النبي ﷺ المدينة في ضنك

---

(١) مفاتيح الغيب (٣٣٩/١٤).

(٢) حمل بعض المفسرين الآية على هذا الأسلوب ولم يتجاوزوا في تفسير دلالتها القول بإفادة تأكيد استحالة وصف الإيمان بالله وبآياته بأنه أمر يعاب ويُنكَر، وقاسوا الوجه البلاغي في هذه الآية على البيت المشهور للنابغة الذبياني. يراجع: تفسير الكشاف (١٤٢/٢)، وتفسير النسفي (٥٩٥/١)، والبحر المحيط (١٤٢/٥)

(٣) سورة:(التوبة)، من الآية:(٧٤).

(٤) تفسير البغوي (٣٧١/٢)، وتفسير الكشاف (٢٩٢/٢).

(٥) تفسير ابن أبي حاتم (١٨٤٥/٦).

من العيش، فأغناهم الله ورسوله بما جلبه حلول النبي ﷺ بينهم من أسباب الرزق بكثرة عمل المهاجرين، وبوفرة الغنائم في الغزوات، وبالأمن الذي أدخله الإسلام فيهم[١].

فهؤلاء المنافقون بعد أن أغناهم الله ورسوله من فضله بالغنائم وغيرها جعلوا الغنى سببا يُنتقَم به، إذ كان من الأوْلى بهم أن يقابلوا هذا الإغناء بالشكر والإكرام لا بالجحود والنكران، لكنهم بصنيعهم هذا قد جعلوا موضع شكر النبي ﷺ ما هموا به، ولا ذنب له إلا تفضله عليهم.

قال العلامة الجمل:«وهذا من قبيل تأكيد المدح بما يشبه الذم[٢]، كأنه قال: ليس له ﷺ صفة تُكرَه وتُعاب إلا أنه ترتب على قدومه إليهم وهجرته عندهم إغناء الله إياهم بعد شدة الحاجة، وهذه ليست صفة ذم -بل هي صفة مدح- فحينئذ ليس له صفة تُذَم أصلا»[٣]؛ لأن ثبوت النقمة على النبي ﷺ معلقة بكون الغِنى نقمة، وكون الغنى نقمة أمرا محالا لا يتحقق بحال، وهو في حد ذاته ليس عيبا يستوجب الجحود والنكران.

وشبيه بهذه الآية أيضا قوله تعالى:

﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾[٤].

يبين الله تعالى في هذه الآية الأسباب التي حملت هؤلاء الطغاة على إحراق المؤمنين، وبينت أنهم ما علِموا فيهم عيبا وما أنزلوا بهم ما أنزلوا من

(١) تفسير الكشاف (٢/٢٩٢)، والتحرير والتنوير (١٠/٢٧٠).

(٢) حمل بعض المفسرين الجملة الكريمة على هذا الأسلوب وأكدوا على استحالة وصف إغناء الله ورسوله من فضله بأنه أمر يعاب ويُنكَر، وقاسوا الوجه البلاغي في هذه الجملة على البيت المشهور للنابغة الذبياني. يراجع: المحرر الوجيز (٣/٦٠)، ومفاتيح الغيب (١٦/١٠٥)

(٣) الفتوحات الإلهية (٢/٣١٤).

(٤) سورة:(البروج)، الآية:(٨).

عذاب إلا لشيء واحد، وهو إيمانهم بالله تعالى(١).

وإذا كان الإيمان الذي عابه وأنكره هؤلاء الطغاة على المؤمنين محالا وصفه بالعيب، إذن فثبوت العيب منهم للمؤمنين أيضا مستحيل، فالكلام من باب «تأكيد المدح بما يشبه الذم»(٢)، وفي هذا يقول الإمام أبو السعود:«أي: ما أنكروا منهم وما عابوا ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ استئناف مُفصِح عن براءتهم عما يُعاب ويُنكَر بالكلية على منهاج قوله:«ولا عيب فيهم غير أن سيوفَهم...»»(٣).

وقال الإمام ابن عاشور:«والمقصود: التعجيب من ظلم أهل الأخدود أنهم يأتون بمثل هذه الفظاعة لا لجرم من شأنه أن يُنقَم من فاعله، فالكلام من «تأكيد الشيء بما يشبه ضده»، أي: ما نقموا منهم شيئا يُنقَم بل لأنهم آمنوا بالله وحده كما آمن به الذين عذبوهم»(٤).

الموضع الرابع

قال تعالى:﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾(٥).

تناولت هذه الآية الحديث عن المشركين وتهديدهم ردا على ما كانوا يطلبونه من الآيات الخارقة، وبينت أنهم ما ينتظرون بعد إعراضهم عن آيات الله

(١) التفسير الوسيط، د/ محمد سيد طنطاوي (١٥/٣٤٥).

(٢) ممن حمل الآية على هذا الأسلوب ونص عليه الشوكاني في تفسيره (٥/٥٠٠)، وأشار إليه أيضا بعض المفسرين كـ(الزمخشري، والرازي) وغيرهما، لكنهم لم ينصوا صراحة عليه، بل قاسوا الوجه البلاغي في هذه الآية على البيت المشهور للنابغة الذبياني. يراجع: تفسير الكشاف (٤/٧٣١)، ومفاتيح الغيب (٣١/١١٢)

(٣) إرشاد العقل السليم (٩/١٣٧).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/٢٤٤).

(٥) سورة:(الأنعام)، الآية:(١٥٨).

وإصرارهم على الكفر مع ظهور الأدلة على بطلانه كي يؤمنوا إلا مجئ إحدى أمور ثلاثة تتمثل في مجيء الملائكة لقبض أرواحهم أو بالعذاب، أو مجيء الرب ﷻ إتيانا يناسب ذاته الكريمة، أو مجيء بعض علامات قيام الساعة(١).

موضع التعليق بالمحال في الآية الكريمة:

يتجلى أسلوب التعليق في هذه الآية عند قوله تعالى:﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾، فالله تعالى يحكي في هذه الآية عن المشركين استحالة حدوث الإيمان منهم؛ لأن حصوله جاء معلَّقا على حصول أمور غير محتملة الوقوع، وهي مجئ إحدى هذه الأمور الثلاثة، فوجه التناسب بين المعلَّق والمعلَّق به مبني على حكاية نفي إيمانهم بالكلية إلا إذا تحققت إحدى هذه الأمور، فكأن تقدير الآية كما قال الخازن:«إنهم لا يؤمنون بك إلا إذا جاءتهم إحدى هذه الأمور الثلاثة، فإذا جاءتهم إحداها آمنوا، وذلك حين لا ينفعهم إيمانهم»(٢)، فيُفهَم من كلام الإمام الخازن أن إيمان المشركين متوقف على مجئ إحدى هذه الأمور، ولو فُرِضَ جدلا وحدثت إحداها وآمنوا فإيمانهم حينئذ كالعدم لا ينفعهم، وعلى هذا المعنى تكون جملة ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ جملة مستأنفة سيقت لاستبعاد تأتِّي الإيمان منهم، ففي الآية تعليق على محال في المعنى، والمعلَّق على المحال محال.

---

(١) فُسِّرَتْ كما ذكر الإمام الطبري في تفسيره (٢٤٥/١٢) وعليه أكثر المفسرين بـ(طلوع الشمس من مغربها) لحديث:«لا تقوم الساعة حتى تطلُع الشمس من مغربها، فإذا طلَعَتْ من مغربها آمن الناس كلهم أجمعون، فيومئذ ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرًا﴾». صحيح مسلم (١٣٧/١، ح: ١٥٧) عن أبي هريرة، كتاب: الإيمان، باب: بيان الزمن الذي لا يُقبَل فيه الإيمان.

(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل (١٧٤/٢).

الموضع الخامس

قال تعالى:﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾(١).

في هذه الآية رد من نبي الله شعيب على المستكبرين من قومه بأنه لن يعود هو وأتباعه إلى ملة الكفر الباطلة، حيث قال لهم:﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ﴾، ثم كرر هذا الرفض بأبلغ وجه فقال:﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ﴾أي: ما يصح لنا ولا يتأتى منا أن نعود في ملتكم الباطلة إلا أن يكون قد سبق في علم الله ومشيئته أنا نعود فيها، فحينئذ يمضي قضاء الله فينا وينفذ حكمه علينا(٢).

موضع التعليق بالمحال في الآية الكريمة:

يتجلى أسلوب التعليق بالمحال في هذه الآية عند قوله تعالى:﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ﴾، فقد حكى بعض المفسرين أن هذا الكلام من نبي الله شعيب مذكور على سبيل التبعيد والامتناع، حيث علق عوده إلى ملتهم على مشيئة الله، والله ﷻ لا يشاء الكفر(٣)، وعليه فكل أمر عُلِّق بما لا يكون

---

(١) سورة:(الأعراف)، من الآية:(٨٩).

(٢) اختار هذا المعنى الزجاج في معاني القرآن (٢/٣٥٥-٣٥٧)، ثم عقب بقوله: «وهذا مذهب أهل السنة»، وتبعه بعض المفسرين كالبغوي في تفسيره (٢/٢١٥)، وابن عطية في تفسيره (٢/٤٢٨)، وابن الجوزي في تفسيره (٢/١٣٩).

(٣) نقل هذه العبارة عن بعض المفسرين الزجاج في معاني القرآن (٢/٣٥٦)، ومكي في الهداية إلى بلوغ النهاية (٤/٢٤٥١).

والقول بـ(أن الله ﷻ لا يشاء الكفر) مخالف للنصوص القرآنية والعقلية من أن جميع الكائنات تابعة لمشيئة الله وقوعا وعدما، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. حاشية الشهاب (٤/١٩٠) كما أن هذا القول فيه ادعاء كبير وخطأ فادح؛ لأن معنى أن الله لا يشاء الكفر أن الكفار يكفرون رغما عن الله، وهذا يؤدي إلى إثبات العجز والضعف لله بأنه لا يستطيع منع كفر الكفار، وأنه تحْدُث في ملكه أشياء بدون إذنه -تعالى الله عن ذلك- فالله ﷻ هو =

فقد نُفِيَ حصوله على أبعد الوجوه، وفي هذا المعنى يقول الإمام الزمخشري:«ويجوز أن يكون قوله:﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ حسْما لطمعهم في العود؛ لأن مشيئة الله لعودهم في الكفر محال خارج عن الحكمة»[1]، وعليه فقوله:﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لاستبعاد العود.

وهذا القول الذي يشير إلى أن في الجملة الكريمة تعليقا بالمحال حكاه بعض المفسرين ضمن الأقوال الواردة في معنى الآية، فمنهم من نص صراحة عليه كالإمام الشوكاني[2]، ومنهم من لم ينص عليه[3].

والذي أميل إليه أن هذه الجملة ليست من باب «التعليق بالمحال»؛ لأن عودة قوم شعيب إلى ملة الكفر الباطلة متوقفة على إرادة الله ومشيئته من أنهم سيعودون إليها، فهو وحده مُقَلِّب القلوب، ومشيئته ﷻ نافذة ماضية، قال الواحدي: «والذي عليه أهل العلم والسنة في هذه الآية أن شعيبا وأصحابه قالوا: ما كنا لنرجع في ملتكم بعد إذ وقفنا على أنها ضلالة تُكسِب دخول النار إلا أن يريد الله إهلاكنا، فأمورنا راجعة إلى الله غير خارجة عن قبضته، يُسعِد من يشاء بالطاعة، ويُشقِي من يشاء بالمعصية، وهذا من شعيب وقومه

=

الذي يُقَدِّر الكفر ويقضيه على مَن علِمه منه، قال تعالى:﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، فلا يقع شيء في الوجود بدون إذنه ومشيئته، قال البيضاوي عند تفسير قوله تعالى:﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾:«وفيه دليل على أن الكفر بمشيئة الله». أنوار التنزيل (٢٤/٣)

قال ابن المنيِّر:«العود إلى الكفر جائز في قدرة الله أن يقع من العبد، ولو وقع فبقدرة الله ومشيئته المغيبة عن خلقه، فالحذر قائم والخوف لازم، ولكن لمن وفقه الله تعالى للعقيدة الصحيحة والإيمان السالم». الانتصاف بحاشية الكشاف (١٣٠/٢)

(١) تفسير الكشاف (١٣٠/٢).

وقوله:«محال خارج عن الحكمة» مبنى على مذهب المعتزلة كما ذكر ابن المنيِّر.

(٢) يراجع: فتح القدير (٢٥٦/٢).

(٣) يراجع: الهداية إلى بلوغ النهاية (٢٤٥٠/٤)، ومفاتيح الغيب (٣١٧/١٤).

استسلام للمشيئة»[1]، وقال ابن عاشور :«وقوله:﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾تأدُّب مع الله وتفويض أمره وأمر المؤمنين إليه، أي: إلا أن يُقدِّر الله لنا العود في ملتكم فإنه لا يُسأَل عما يفعل»[2].

وأما عن الرأي القائل بأن هذه الجملة من باب «التعليق بالمحال» فقد حملوها على معنى أن الله ﷻ لا يشاء الكفر، وبالتالي لا يشاء عودتهم إلى ملة هؤلاء القوم، وقد سبق بيان خطأ هذا القول لمخالفته لكثير من النصوص الواردة في أن الكائنات تابعة لمشيئة الله ﷻ، وبيَّن الزجاج أيضا خطأ هذا الرأي فقال:«وهذا خطأ لمخالفته أكثر من ألف موضع في القرآن لا تحتمل تأويلين، ولا يحدث شيء إلا بمشيئته وعن علمه»[3].

وعند تفسير ابن عطية لقوله تعالى:﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ذكر أكثر من توجيه، ثم علق على الرأي القائل بأنه يحتمل أن يريد بذلك معنى الاستبعاد بقوله:«وهذا تأويل إنما هو للمعتزلة الذين من مذهبهم أن الكفر والإيمان ليسا بمشيئة من الله تعالى، فلا يترتب هذا التأويل إلا عندهم »[4].

الموضع السادس

قوله تعالى:﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾[5].

في هذه الجملة قيد الله ﷻ خلود أهل الجنة وأهل النار بالمشيئة فقال في كل منهما:﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾، ثم بين سبحانه عدم الانقطاع في كل منهما، فقال في خلود أهل الجنة:﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، وقال في خلود أهل النار في آية

(١) التفسير البسيط (٩/٢٣٢).
(٢) التحرير والتنوير (٩/٩).
(٣) معاني القرآن وإعرابه (٢/٣٥٦).
(٤) المحرر الوجيز (٢/٤٢٨).
(٥) سورة:(هود)، من الآيتين:(١٠٧-١٠٨).

أخرى:﴿كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾(١)، ومعلوم أن {كلما} تقتضي التكرار بتكرر الفعل الذي بعدها(٢).

فإن قلت: ما معنى التوقيت الوارد في قوله تعالى:﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾(٣)، وقد عُلِمَ بالأدلة القطعية تأبيد عذاب الكفار في النار وعدم انقطاعه عنهم وكذلك دوام سعادة المؤمنين في الجنة، وثبت أيضا أن السماوات والأرض تذهبان عند انقضاء أيام الدنيا؟

قلت: اختلف العلماء في بيان معنى هذا التوقيت على وجهين:

الأول: أن يكون المراد:(سماوات الآخرة وأرضها)، وهما دائمان بدوام الآخرة، وعليه فالمقصود من هذا التعبير: تعليق خلودهم في الجنة أو النار بدوام السماوات والأرض، والدليل على أن للآخرة سموات وأرضا غير هذه الموجودة في الدنيا قوله تعالى:﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾(٤)، قال ابن عباس:«لكل جنة أرض وسماء».

الثاني: ويجوز أن يكون المراد:(السماء والأرض المعهودتين في الدنيا)– أي: مدة دوامهما– وأُجرِي ذلك على عادة العرب في الإخبار عن دوام الشيء وتأبيده، كقولهم:(لا آتِيك ما جن ليل، أو سال سيل، وما دامت السماوات والأرض)، وغير ذلك من كلمات التأبيد، ولذلك خاطب الله العرب بما تعهده في كلامها وتعرفه في عُرْفِها فقال:﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ ﴾ أي: أنهم خالدون فيها أبدا لا انقطاع لذلك ولا انتهاء له، فعبر سبحانه عن الخلود بـ(دوام السموات والأرض) لاعتقادهم في أصل اللغة أنهما غير منقطِعَين ولا

---

(١) سورة:(الإسراء)، من الآية:(٩٧).

(٢) أضواء البيان (٢/٢٠٠).

(٣) ﴿مَا﴾ في قوله تعالى:﴿مَا دَامَتِ﴾ مصدرية ظرفية، أي: مدة دوام السموات والأرض. تفسير القرطبي (٩/٩٩)، والبحر المحيط في التفسير (٦/٢١١)

(٤) سورة:(إبراهيم)، من الآية:(٤٨).

مبتعِدَين، وعليه فالمقصود من هذا التعبير: (التأبيد ونفي الانقطاع)[١]، وليس المراد: تعليق قرارهم فيها بدوام هذه السماوات والأرض، فإن النصوص القاطعة دالة على تأبيد قرارهم فيها وانقطاع دوامهما[٢].

ويمكن حصر أقوال العلماء في بيان وجه تعليق الخلود بالمشيئة في هذه الجملة الكريمة في ثلاثة أقوال:

القول الأول: يرى أن فيها تعليقا بالمحال، وفد بنى أصحاب هذا القول كلامهم على مذهبهم العقدي القائل بأن خلود أهل النار واجب على الله تعالى، ولا يجوز عليه إخلاف الوعيد، وهذا رأي المعتزلة[٣].

وقد أشار إلى وجه التعليق بالمحال في هذه الجملة علي بن الحسين

(١) ممن حمل الجملة الكريمة على هذا المعنى القرطبي في تفسيره (٩/٩٩)، والنسفي في تفسيره (٢/٨٥)، والخازن في تفسيره (٢/٥٠٣-٥٠٤)، وحكى الواحدي في تفسيره البسيط (١١/٥٥٦) أن هذا المعنى هو ما عليه الأكثرون.

(٢) يراجع: الانتصار للقرآن (٢/٥٨٦-٥٨٧)، وتفسير الكشاف (٢/٤٣٠)، وإرشاد العقل السليم (٤/٢٤١).

(٣) أشار إلى هذا القول القاضي عبد الجبار فقال:«البغدادية من أصحابنا أوجبت على الله تعالى أن يفعل بالعصاة ما يستحقونه لا محالة، ولا يجوز أن يعفو عنهم، فصار العقاب عندهم أعلى حالا في الوجوب من الثواب، فإن الثواب عندهم لا يجب إلا من حيث الجود، وليس هذا قولهم في العقاب، فإنه يجب فعله في كل حال». شرح الأصول الخمسة (ص: ٦٤٤) وما ذهب إليه المعتزلة من منع إخلاف الوعيد فهو إلى سوء الظن أقرب، والذي عليه أهل السنة أن إخلاف الوعيد لا يُذَم بل يُمدَح، فيجوز على الله تعالى إخلاف الوعيد لا إخلاف الوعد، والفرق بينهما: أن الوعيد حقه، فإخلافه عفو وهبة، وإسقاطه موجب كرمه وجوده وإحسانه، والوعد أوجبه على نفسه بوعده، والله لا يخلف الميعاد، روي عن أنس بن مالك أن النبي ﷺقال:«مَن وعده الله على عمل ثوابا فهو مُنجِزُه له، ومَن وعده على عمل عقابا فهو فيه بالخيار»، قال الرازي في تفسيره (٣/٥٦٧):«لما خص الوعد بأنه لا يخلفه علمنا أن الخلف في الوعيد جائز، ثم العقل يطابق ذلك؛ لأن الخلف في الوعد لؤم وفي الوعيد كرم». يراجع: الانتصار في الرد على المعتزلة (٣/٦٧٦)، ولوامع الأنوار البهية (١/٣٧٠)، والحديث أخرجه أبو يعلى في مسنده (٦/٦٦، ح: ٣٣١٦)، قال المحقق:«إسناده ضعيف».

العَلَوِي(١) عند حديثه عن معنى الاستثناء في قوله تعالى:﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾، وذكر فيه عدة أوجه فقال:«والوجه السادس: أن يكون تعليق ذلك بالمشيئة على سبيل التأكيد للخلود والتبعيد للخروج؛ لأن الله تعالى لا يشاء إلا تخليدهم على ما حكم به ودل عليه، ويجري ذلك مجرى قول العرب:«والله لَأَهْجُرَنك إلا أن يَشِيبَ الغراب ويَبيَضَّ القار»، ومعنى ذلك :(أني أهجرك أبدا) من حيث عُلِّق بشرط معلوم أنه لا يحصل، وكذلك معنى الآيتين، والمراد بهما: أنهم خالدون أبدا لأن الله تعالى لا يشاء أن يقطع خلودهم»(٢).

التعليق:

أشار العَلَوِي في هذا النص إلى التعليق بالمحال في الجملة الكريمة دون النص الصريح عليه، بل قاسه على قول العرب: «والله لَأَهْجُرَنك إلا أن يَشِيبَ الغراب ويَبيَضَّ القار»، وبيان ذلك: أن المتكلم علق الهجران بشرط محال حصوله مع يقينه أن الغراب لا يشِيب، وأن القار لا يمكن تحوله إلى اللون الأبيض، فكأنه يقول:(إني أهجرك أبدا)، فالاستثناء هنا لا يفيد نقص شيء من التأبيد؛ لأن شَيْبَ الغراب وابيضاضَ القار محال، فكذلك الاستثناء في الجملة الكريمة ذكره الله وهو لا يشاء أن ينقصهم من الخلود شيئا بعد أن حكم به ودل عليه، بل إنهم خالدون خلودا أبديا، فكأن هذا الاستثناء لا يكون ولا يوجد، وكأن العَلَوِيَّ بهذا الكلام يوجب على الله الخلود وينفي مشيئته وإرادته، وهذا مخالف لما عليه أهل السنة.

القول الثاني: يوافق القول الأول في وجه ويخالفه في وجه آخر، يوافقه في أن الجملة الكريمة فيها تعليق بالمحال، واستحالة تعلق المشيئة بعدم

(١) علي بن الحسين العلوي: هو أبو القاسم المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي، ولد سنة (٣٥٥هـ)، وتوفي سنة (٤٣٦هـ)، كان رأسا في الاعتزال، له مصنفات منها:(الشافي في الإمامية، والملخص في الأصول، ومجمل العلم والعمل)، وغيرها. الوافي بالوفيات (٢٣١/٢٠)

(٢) أمالي المرتضى المسمى:«غرر الفوائد ودرر القلائد» (٨٩/٢).

الخلود، ويخالفه في وجوب ذلك على الله تعالى، وقد أشار الإمام أبو السعود إلى هذا المعنى فقال:«﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ استثناء من الخلود على طريقة قوله تعالى:﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾[١]، وقوله:﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾[٢]، وقوله:﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾[٣]، غير أن استحالة الأمور المذكورة معلومة بحكم العقل، واستحالة تعلق المشيئة بعدم الخلود معلومة بحكم النقل، يعني: أنهم مستقرون في النار في جميع الأزمنة إلا في زمان مشيئة الله تعالى لعدم قرارهم فيها، وإذ لا إمكان لتلك المشيئة ولا لزمانها بحكم النصوص القاطعة الموجبة للخلود فلا إمكان لانتهاء مدة قرارهم فيها، ولدفع ما عسى يُتوهم من كون استحالة تعلق مشيئة الله تعالى بعدم الخلود بطريق الوجوب على الله تعالى قال:﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ يعني: أنه في تخليد الأشقياء في النار بحيث يستحيل وقوع خلافه، فعال بموجب إرادته، قاض بمقتضى مشيئته الجارية على سَنَن حكمته الداعية إلى ترتيب الأجزية على أفعال العباد»[٤].

التعليق:

يفهم من كلام الإمام أبي السعود أن الله تعالى قد حكم عليهم بالخلود، ولو شاء إخراجهم لأخرجهم لكنه لم يشأ، فهذا كما قال الفراء:«استثناء يستثنيه الله ولا يفعله، كقولك:(والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك)، وعزيمتك على ضربه، فكذلك قال:﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾، ولا يشاؤه، والله أعلم»[٥]، أي: يجوز أن يكون الاستثناء ذكره الله تعالى وهو

(١) سورة:(الدخان)، من الآية:(٥٦).

(٢) سورة:(النساء)، من الآية:(٢٢).

(٣) سورة:(الأعراف)، من الآية:(٤٠).

(٤) إرشاد العقل السليم (٢٤٢/٤).

(٥) معاني القرآن (٢٨/٢) بتصرف.

لا يريد أن ينقصهم من الخلود شيئا؛ لأنه قد بين في مواضع من كتابه أنه يخلد الكافرين في النار والمؤمنين في الجنة، فإذا ذكر في هذه الآية الاستثناء كان ذلك استثناء لا يكون.

وأشار الإمام الطيبي أيضا إلى وجه التعليق بالمحال في الجملة الكريمة وزاده إيضاحا فقال:«الاستثناء من أسلوب قوله تعالى:﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ يعني: أن انقضاء مدة بقائهم فيها محال، فيُخلَّدون فيها أبدا إلا ما شاء الله، وقد عُلِم اتفاقا أن مشيئة الله على الخلود فيها، فإذن لا انقطاع لخلودهم»[1].

<u>القول الثالث</u>: لم يُشِر إلى وجه التعليق بالمحال في هذه الجملة، وذكروا في الاستثناء في قوله تعالى:﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ عدة أوجه أشهرها[2]:

١) <u>أن الاستثناء هنا في معنى الشرط</u>: فكأنه سبحانه يقول: خالدين فيها خلودا أبديا إن شاء ربك ذلك، وعليه فالمقصود بهذا الاستثناء: إرشاد العباد إلى وجوب تفويض الأمور إليه سبحانه، وإعلامهم بأن كل شيء خاضع لإرادته ومشيئته، فهو الفاعل المختار الذي لا يجب عليه شيء.

وهذا القول ذكره كثير من المفسرين ضمن الأقوال في معنى الجملة الكريمة، ومن ذلك قول الإمام ابن عطية:«إن ذلك على طريق الاستثناء الذي ندب الشرع إلى استعماله في كل كلام، فهو على نحو قوله:﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾[3]، وهذا الاستثناء في حكم الشرط كأنه قال:{إن شاء الله}، فليس يحتاج إلى أن يوصف بمتصل ولا بمنقطع، ويؤيد هذا

(١) حاشية الطيبي على الكشاف (٢٠٣/٨).

(٢) ذكر العلماء في المقصود بالاستثناء في قوله تعالى:﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ أقوالا متعددة، أوصلها بعضهم إلى ثلاثة عشر قولا، وللوقوف على ما قيل حول هذا الاستثناء يراجع: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٧٩/٣-٨٠)، وتفسير القرطبي (٩/ ٩٩).

(٣) سورة:(الفتح)، من الآية:(٢٧).

قوله:﴿ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴾»[1]، وأشار إليه أيضا ابن كثير فقال:«معنى الاستثناء هاهنا: أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمرا واجبا بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم دائما»[2].

٢) أن الاستثناء هنا خاص بالعصاة من المؤمنين: قال الإمام ابن جرير بعد أن سرد الأقوال في ذلك:«وأولى هذه الأقوال في تأويل هذه الآية بالصواب أن ذلك استثناء في أهل التوحيد من أهل الكبائر أنه يُدخِلُهم النار خالدين فيها أبدا إلا ما شاء من تركهم فيها أقل من ذلك، ثم يُخرِجهم فيُدخِلهم الجنة -أي: العصاة من المؤمنين-[3]»[4].

الراجح:

الذي أميل إليه أن الاستثناء في الجملة الكريمة إنما هو استثناء معلق بمشيئة الله ﷻ؛ إذ كل شيء خاضع لمشيئته، وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى:﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ أي: أنهم خالدون فيها إلا ما شاء ربك من تغيير في هذا النظام المُعَدّ لهم في الآخرة، إن شاء أبقاه وإن شاء منعه، قال الزرقاني:«الاستثناء في مثل هذا للتنبيه على أن ذلك التأبيد والتخليد بكرم من الله وسعة جود لا بتحتيم عليه وإيجاب، وأنه لو أراد أن

(١) المحرر الوجيز (٢٠٨/٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣٥٢/٤).

(٣) يرى جمهور المسلمين أن مرتكب الكبيرة من المؤمنين إذا مات بلا توبة فإنه لا يُخلَّد في النار، بل إن شاء الله عفا وإن شاء عذب، وعند المعتزلة القطع بالخلود في النار. شرح المقاصد (١٣١/٥) ومن الأدلة على استثناء العصاة من المؤمنين وخروجهم من النار: ما روي عن أنس عن النبي ﷺ قال:«لَيُصِيبَن أقواما سفْعٌ -علامة- من النار بذنوب أصابوها عقوبة، ثم يُدخِلُهم الله الجنة بفضل رحمته، يقال لهم: الجَهَنميون». صحيح البخاري (١٣٤/٩، ح: ٧٤٥٠)، كتاب: التوحيد، باب ما جاء في قول الله تعالى:﴿ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾.

(٤) جامع البيان (٤٨٤/١٥) بتلخيص.

يسلب ما وهب لم يمنعه من ذلك مانع»(١).

وهذا المعنى أظنه هو المناسب لقوله تعالى في ختام آية الأشقياء: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي: لما يريده ويشاءه سبحانه، ولقوله تعالى في ختام آية السعداء: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي: غير مقطوع عنهم، فعطاء الله للسعداء في الجنة ودوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمرا واجبا عليه، بل هو موكول إلى مشيئته، فله المنة والفضل والإكرام عليهم دائما.

الموضع السابع

قال تعالى: ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾(٢).

تشير هذه الآية إلى أن إخوة يوسف بعد أن اتُّهِموا بالسرقة بدأ المؤذن بتفتيش أوعيتهم بحثا عن الصواع بداخلها فلم يجد شيئا، فلما وصل إلى وعاء بنيامين وجد السقاية بداخله فاستخرجها منه، وهكذا دبر الله الأمر ليوسف ليصل إلى غرضه، ما كان يوسف في استطاعته أخْذ أخيه بمقتضى شريعة ملك مصر وحكمه إلا بمشيئة الله وإذنه بذلك، فهو سبحانه الذي ألهمه أن يَدُسَّ السقاية في رحل أخيه، وأن يسأل إخوته عن عقوبة السارق في شريعتهم(٣).

موضع التعليق بالمحال في الآية الكريمة:

يتجلى التعليق بالمحال عند قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾، وبيان ذلك: أن يوسف عليه السلام لم يكن ليتمكن من احتجاز أخيه وفقا لشريعة الملك؛ لأن حكم السارق في شريعته الغُرْم، بينما

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (٢٦٩/١).

(٢) سورة:(يوسف)، من الآية:(٧٦).

(٣) يراجع: التفسير الوسيط، د/ محمد سيد طنطاوي (٧/ ٣٩٨-٣٩٩) بتصرف.

جزاؤه في شريعة آل يعقوب الاسترقاق[1]، ولكي يصل يوسف إلى غرضه كان من المحال أن يحكم بشريعة الملك؛ لأن حُكْمه في هذه القضية بمقتضى شريعته مما لا يشاؤه الله له لأنه خلاف المراد، لذلك لجأ يوسف إلى حيلة تتوافق مع شريعة آل يعقوب وكان ذلك بتدبير الله له، فلولا مشيئته سبحانه وتدبيره له ما وصل إلى مراده وما تحققت غايته.

وتوجيه قوله تعالى:﴿ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ على التعليق بالمحال نص عليه لفظا الإمام أبو السعود فقال:«الاستثناء من قبيل التطبيق بالمحال[2]، إذ المقصود بيان عجز يوسف عليه السلام عن أخذ أخيه حينئذ، ولم تتعلق المشيئة بالجعل المذكور إذ ذاك، وإرادة عجزه مطلقا تؤدي إلى خلاف المراد، فإن استثناء حال المشيئة المذكورة من أحوال عجزه مما يُشعِر بعدم الحاجة إلى الكيد المذكور»[3].

وقال بوجه التعليق بالمحال في الجملة الكريمة ضمنا الإمامان:(الطيبي، والشهاب الخفاجي)، وقاسا هذا الوجه على قوله تعالى:﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾، وحاصل كلامهما: أنه يجوز أن يكون قوله:﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾المراد به التأبيد، كأنه قيل: ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك أبدا؛ لأنه جل من انتصب لمنصب النبوة أن يحكم بدين الكفار، فهذا كقوله تعالى:﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾؛ لأن عودهم في ملتهم مما لن يشاء الله

(١) يراجع: تفسير البيضاوي (١٧٢/٣).

(٢) اختلف العلماء في الاستثناء في قوله تعالى:﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾على قولين:

الأول: الاستثناء منقطع، وعليه فالمعنى:«لكن بمشيئة الله أخذه في دين غير الملك، وهو دين آل يعقوب أن الاسترقاق جزاء السارق». البحر المحيط (٣٠٧/٦)

الثاني: الاستثناء متصل من أعم الأحوال، أي: ما كان ليأخذه في حال من الأحوال إلا في حال مشيئة الله التي هي عبارة عن ذلك الكيد. يراجع: الفريد في إعراب القرآن (٦١٦/٣)، وإرشاد العقل السليم (٢٩٧/٤)، وحاشية الشهاب (١٩٦/٥)

(٣) إرشاد العقل السليم (٢٩٧/٤).

على مذهبه[1]، وكذلك حُكْم يوسف عليه السلام في هذه القضية بمقتضى شريعة الملك مما لا يشاؤه الله له لأنه خلاف المراد، وعليه فقوله تعالى:﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ استئناف وتعليل لذلك الكيد وصُنْعِه، كأنه قيل: لماذا فعل ذلك؟ فقيل: لأنه لم يكن ليأخذ أخاه بما فعله في دين الملك في أمر السارق إلا به[2].

الموضع الثامن

قال تعالى:﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾[3].

تناولت هذه الآية الحديث عن عبدة الأصنام بأنهم إذا دعوا آلهتهم لا يجيبون لهم دعاء ولا يسمعون لهم نداء، وقد قرر الله هذه الحال وثبتها في الأذهان بتشبيه هؤلاء الوثنيين بمن يبسط كفيه إلى الماء طالبا منه أن يصل إلى فمه دون أن يتحرك هو إليه، وما الماء ببالغ فم هذا الشخص الأحمق؛ لأنه لا يشعر ببسط كفيه ولا بحاجته إليه، فالمقصود من هذه الآية: نفي استجابة الأصنام لما يطلبه المشركون منها نفيا قاطعا، وتصوير بليغ لخيبة وجهالة من يتوجه بالعبادة والدعاء لغير الله تعالى[4].

موضع التعليق بالمحال في الآية الكريمة:

يتجلى التعليق بالمحال عند قوله تعالى:﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ﴾، وبيان ذلك: أن الأصنام التي يعبدها المشركون ليس لعابديها شيء من الاستجابة أصلا إلا هذه الاستجابة الشبيهة باستجابة باسط كفيه إلى الماء إن عُدَّت من الاستجابة، ولما كانت استجابة الماء لطالبه أمرا محالا،

(١) حاشية الطيبي (٣٩٨/٨)، وحاشية الشهاب (١٩٦/٥).
(٢) إرشاد العقل السليم (٢٩٦/٤- ٢٩٧).
(٣) سورة:(الرعد)، الآية:(١٤).
(٤) التفسير الوسيط، د/ محمد سيد طنطاوي (٤٥٨/٧) بتصرف.

فكذلك من يدعو الأصنام لتدفع عنه كربة أو تُولِيه نعمة فإنها لا تجيبه بشيء أبدا لعدم قدرتها على ذلك لنفسها فضلا عن غيرها، فما هو معلق على المحال محال، قال تعالى:﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ﴾(١)، ولهذا قطع الله رجاءهم وتعلقهم بمعبوداتهم فختم الآية بقوله:﴿ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ أي: وما عبادة الكافرين لأصنامهم والتجائهم إليها إلا في ضياع وخسران.

وتوجيه قوله تعالى:﴿ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ ﴾ على التعليق بالمحال قال به ضمنا بعض المفسرين(٢)، ونص عليه لفظا الإمام أبو السعود فقال:«شبه حال المشركين في عدم حصولهم في دعاء آلهتهم على شيء أصلا وركاكة رأيهم في ذلك بحال عطشان هائم لا يدري ما يفعل، قد بسط كفيه من بعيد إلى الماء يبغي وصوله إلى فيه، والمراد: نفي الاستجابة رأسا، إلا أنه قد أُخرِج الكلام مخرج التهكم بهم فقيل: لا يستجيبون لهم شيئا من الاستجابة كائنة في هذه الصورة التي ليست فيها شائبة الاستجابة قطعا، فهو في الحقيقة من باب «التعليق بالمحال»»(٣).

وقال بهذا الأسلوب أيضا دون النص صراحة عليه الإمامان (الشهاب الخفاجي، وابن عاشور)، أما الإمام الشهاب الخفاجي فقاسه على الشاهد العَلَم لأسلوب «تأكيد المدح بما يشبه الذم» فقال:«والاستثناء في قوله:﴿ إِلَّا كَبَٰسِطِ ﴾ على حد قوله: ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ...»(٤)، أي: لما كان المستثنى محالا إثبات كونه عيبا صار إثبات شيء من العيب للمتحدَّث عنهم محالا، وكذلك الحال في الآية الكريمة، لما كان الباسط لكفيه إلى الماء يبغي وصوله

(١) سورة:(فاطر)، من الآية:(١٤).
(٢) يراجع: الكشف والبيان (٢٨١/٥)، وتفسير البغوي (١٢/٣)، وغيرهما.
(٣) إرشاد العقل السليم (١١/٥) بتلخيص.
(٤) حاشية الشهاب (٢٢٩/٥).

إلى فيه، واستجابة الماء لطالبه أمر محال، صار إثبات استجابة الأصنام لعابديها أيضا أمرا محالا.

وأما الإمام ابن عاشور فقد رد التعليق بالمحال في هذه الجملة إلى «تأكيد الشيء بما يشبه ضده»، وأن الاستثناء في قوله:﴿ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ ﴾ يؤول إلى نفي الاستجابة في سائر الأحوال بطريق التمليح والكناية(١).

وبهذا يتبين أن وجه التناسب بين المعلَّق والمعلَّق به -أي: بين استجابة الأصنام والماء- مبني على نفي الاستجابة في كل منهما، فكما أن الماء لا يستجيب لطالبه، فكذلك الأصنام لا تجيب عابديها، فجاء التعليق في الجملة الكريمة على أمر لا يقع على سبيل التبعيد وإياس المشركين من إجابة دعائهم.

الموضع التاسع

قال تعالى:﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴾(٢).

بينت الآية الكريمة أن من صفات الجنات أن أهلها حينما يدخلونها لا يسمعون فيها فاحِشَ القول وساقِطَه؛ لأنهم لا يلغُون فيها أصلا، لكنهم يسمعون فيها كلاما سالما من العيب والنقص، أو تسليم الملائكة عليهم، أو تسليم بعضهم على بعض تشريفا وتعظيما وتكريما لهم(٣).

موضع التعليق بالمحال في الآية الكريمة:

يتجلى وجه التعليق بالمحال عند قوله تعالى:﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗا ﴾، وبيان ذلك: أن أهل الجنة لا يسمعون فيها فضول القول وما لا طائل تحته أبدا إلا السلام إن عُدَّ من اللغو(٤)، وحيث استحال كون السلام لغوا

---

(١) التحرير والتنوير (١٠٩/١٣).

(٢) سورة:(مريم)، الآية:(٦٢).

(٣) زاد المسير (١٣٨/٣)، وتفسير البيضاوي (١٥/٤) بتصرف وزيادة.

(٤) الذي عليه جمهور المفسرين أن الاستثناء في قوله تعالى:﴿ إِلَّا سَلَٰمٗا ﴾ استثناء منقطع -وهو الظاهر- وقد اكتفى بالإشارة إلى هذا الوجه بعضهم كالطبري في تفسيره (٢٢٠/١٨)، والواحدي في تفسيره (٢٧٥/١٤)، وغيرهما، وكان هذا الاستثناء منقطعا؛ لأن المستثنى وهو =

استحال سماعهم للغو في الجنة بالكلية.

ويمكن أن يقال: إن في إثبات سماع السلام لأهل الجنة بعد نفي سماع اللغو تحلية بعد التخلية، فالمؤمنون لما عانوا في الدنيا أشد العناء من سماع اللغو وأعرضوا عن أهله، كافأهم الله في الجنة بالراحة من سماع أي نوع من اللغو، فكان في ذلك تخلية، ثم كانت التحلية في إثبات سماع السلام الذي كان شعارهم ومنهجهم في حياتهم، فلما كان السلام خُلُقًا رئيسا ارتضاه الله للمؤمنين وهداهم به إلى الإيمان، واستحقوا به الجنان، وجدوا هذا الخُلُق الذي تخلقوا به في دنياهم يملأ عليهم أسماعهم في جنات النعيم، فكان في ذلك تحلية، جعلنا الله جميعا من أهل دار السلام.

وتوجيه قوله تعالى: ﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمًا ﴾ على التعليق بالمحال نص عليه لفظا الإمام أبو السعود فقال: «﴿إِلَّا سَلَٰمًا ﴾ استثناء متصل بطريق التعليق بالمحال، أي: لا يسمعون لغوا ما إلا سلاما، وحيث استحال كون السلام لغوا استحال سماعهم له بالكلية»(١).

وقال بهذا الأسلوب أيضا دون النص صراحة عليه الإمامان (الآلوسي، والشنقيطي)(٢)، وقاسا هذا الوجه على البيت المشهور للنابغة الذبياني: «ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم...»، ورداه إلى أسلوب «تأكيد المدح بما يشبه الذم»(٣).

=

(السلام) ليس من جنس المستثنى منه وهو (اللغو المنفي سماعه في الجنة)، ووجه استثناء السلام من اللغو رغم أنه ليس داخلا فيه: المبالغة في نفي اللغو في الجنة وأنه ليس فيها إلا السلام.

(١) إرشاد العقل السليم (٢٧٣/٥) بتصرف وتلخيص.

(٢) يراجع: روح المعاني (٤٢٩/٨)، وأضواء البيان (٤٦٩/٣).

(٣) عُد ذلك من أسلوب «تأكيد المدح بما يشبه الذم»؛ لأن ذكر أداة الاستثناء توهم أن ما سيأتي بعدها سيكون مخالفا لما قبلها، فإذا أتى مجانسا له واستُثنِي منه لكنه من صفات المدح كان في ذلك توكيد للمعنى المقصود.

وبناء الآية الكريمة على هذا الأسلوب يضفي عليها ملمحا دلاليا معجزا يتمثل في حصر السلام على مسامع المتقين، ذلك أن النفي والاستثناء إذا اجتمعا أفادا التوكيد والحصر، ويبقى لكل منهما معناه، فالنفي أزاح اللغو عن تلك الأسماع، والاستثناء أكد دوام السلام عليها(١).

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى:

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾(٢).

جاءت هاتان الآيتان في سياق الحديث عن النعم التي أنعم الله بها على المقربين في جنات النعيم، وبينتا أنهم لا يسمعون فيها باطلا من القول ولا كلاما سيئا أو قبيحا، وإنما الذي يسمعونه هو الكلام الطيب المشتمل على الأمان المتكرر والتحية الدائمة(٣).

ويتجلى وجه التعليق بالمحال هنا في نفي سماع أهل الجنة للغو والتأثيم، وإثبات أنهم يسمعون فيها الكلام الطيب، واستثناؤه من جملة اللغو والتأثيم المنفيين يوهم أنه داخل فيهما، وحيث استحال كون المستثنى من جملة المستثنى منه استحال سماعهم للغو والتأثيم في الجنة بالكلية.

فالاستثناء هنا أكد المدح بما يشبه الذم، وبيانه: أن المستمع قد يظن أن هناك استثناء من اللغو والتأثيم ربما يسمعه أهل الجنة، لكن جاء الأمر على غير ذلك، حيث استُثْنِيَ من صفة الذم المنفية وهي اللغو والتأثيم صفة مدح وهي التسليم، أي: أن أهل الجنة لا يسمعون فيها إلا ما فيه سعادتهم وما تطيب به نفوسهم وتطمئن به قلوبهم وهو السلام، ففي الآيتين مدح للجنة وخلوها من اللغو والتأثيم لكن بطريقة تشبه الذم، ولذا قال ابن عاشور:«استثناء من ﴿لَغْوًا﴾، و﴿تَأْثِيمًا﴾ بطريقة تأكيد الشيء بما يشبه ضده المشتَهَر في البديع

(١) تأكيد المدح والذم بما يشبه ضدهما في القرآن الكريم (٣/٤٥٥).

(٢) سورة:(الواقعة)، الآيتان:(٢٥-٢٦).

(٣) جامع البيان (٢٣/١٠٨)، والتفسير الوسيط، د/ محمد سيد طنطاوي (١٤/١٦٥).

باسم:«تأكيد المدح لما يشبه الذم»»[1].

وتوجيه هاتين الآيتين على وجه التعليق بالمحال أشار إليه دون النص صراحة عليه كل من (السيوطي، وابن عاشور)، ورداه إلى أسلوب «تأكيد المدح بما يشبه الذم»، وقاس ابن عاشور هذا الوجه على البيت المشهور للنابغة الذبياني[2].

الموضع العاشر

قال تعالى:﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾[3].

يبين الله تعالى في هذه الآية أن المتقين لا يذوقون في الجنة موتا ولا فناء أبدا إلا الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا عند نهاية آجالهم[4].

ومما يجدر ذكره هنا توجيه الاستثناء في قوله تعالى:﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾، وهو اختلاف منبعه أنه كيف استُثنِيَت الموتة الأولى المذوقة قبل دخول الجنة من الموت المنفي ذوقه فيها؟ والجواب من وجهين:

الأول: الاستثناء منقطع، ووجه الانقطاع: أن الموتة الأولى قد انقضت في الدنيا، وما انقضى في الدنيا لا يكون هو بعينه في الآخرة.

الثاني: الاستثناء متصل، أي: أن المؤمن عند موته في الدنيا ومعاينته ما يعطاه في الجنة من نعيمها ينزل منزلة مَن هو فيها، فكأنه ذاق الموتة الأولى في الجنة، لذا جاز أن يُستثنَى الموتة الأولى من مكانهم في الجنة[5].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩٧/٢٧).

(٢) يراجع: الإتقان (٣٠٤/٣)، والتحرير والتنوير (٢٩٧/٢٧).

(٣) سورة:(الدخان)، الآية:(٥٦).

(٤) يراجع: التفسير الوسيط، د/ محمد سيد طنطاوي (١٣٦/١٣) بتصرف.

(٥) يراجع: التبيان في إعراب القرآن (١١٤٩/٢)، والبحر المحيط (٤٠٩/٩).

موضع التعليق بالمحال في الآية الكريمة:

يتجلى التعليق بالمحال عند قوله تعالى:﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰ ﴾، وبيان ذلك: أن المتقين في جنات النعيم لا يذوقون فيها الموت البتة، فوُضِع قوله:﴿إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰ ﴾موضع ذلك؛ لأن الموتة الماضية -أي: التي كانت في الدنيا- محال ذوْقها في المستقبل، كأنه قيل: لو فرضنا ذوق الموت في الجنة لما ذاقوا إلا الموتة الأولى، وذوقهم لتلك الموتة محال لأنها ماضية، فالذوق محال(١)، أي:«المراد بيان استحالة ذوق الموت في الجنة على الإطلاق، كأنه قيل: لا يذوقون فيها الموت إلا إذا أمكن ذوق الموتة الأولى حينئذ»(٢).

وعلى هذا المعنى فالاستثناء في قوله تعالى:﴿إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰ ﴾فيه تعريض باستحالة وقوع الموت في الجنة، والآية الكريمة في مجملها بشارة لأهل الجنة بخلودهم فيها حيث نفى ﷻ عنهم ذوق الموت، وهذا من تمام نعيمهم في الجنة أنهم يحيون فيها دائما.

وتوجيه هذه الجملة الكريمة على التعليق بالمحال نص عليه لفظا الإمام الزمخشري، ونقل الآلوسي جوابه وقاس وجه التعليق بالمحال هنا على قوله تعالى:﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ ﴾، وعلى قول القائل لمن يستسقيه:«لا أسقيك إلا الجمر»، وقد عُلِم أن الجمر لا يُسقَى، فمعناه: إن كان الجمر شيئا يُسقَى فإنما أُسْقِيكَه(٣).

وقال بوجه التعليق بالمحال في معنى الآية ضمنا بعض المفسرين، وحاصل كلامهم: أن الاستثناء في قوله تعالى:﴿إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰ ﴾للمبالغة في تعميم النفي وامتناع الموت، فكأنه قال: لا يذوقون فيها الموت أبدا إلا إذا أمكن

(١) يراجع: تفسير الكشاف (٢٨٣/٤) بتصرف وزيادة.

(٢) إرشاد العقل السليم (٦٦/٨).

(٣) روح المعاني (١٣٤/١٣).

ذوق الموتة الأولى في المستقبل[1].

الموضع الحادي عشر

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ﴾[2].

في هذه الآيات يلقن الله تعالى نبيه ﷺ عدة توجيهات ليبلغها إلى جميع مَن أُرسِل إليهم فيقول: قل أيها الرسول الكريم لجميع من أرسلناك إليهم: إني لا أملك لكم ما يضركم ولا ما ينفعكم، ولن يمنعني أحد من الله إن أرادني بسوء، ولن أجد من دونه ملجأ ألجأ إليه، لكن الذي أملكه هو أن أبلغكم ما أمرني الله بتبليغكم إياه، وإلا رسالاته التي أرسلني بها[3].

ومما يجدر ذكره هنا أن المفسرين قد اختلفوا في توجيه الاستثناء في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ﴾ على أقوال:

الأول: الاستثناء منقطع من قوله: ﴿مُلْتَحَدًا﴾؛ لأن البلاغ من الله ليس داخلا تحت قوله: ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾، أي: لن يجيرني من الله أحد لكن إن بلَّغْتُ عن الله رحِمَني بذلك.

الثاني: الاستثناء متصل من قوله: ﴿مُلْتَحَدًا﴾، وتأويله: أن الإجارة مستعارة للبلاغ، إذ هو سبب إجارة الله تعالى ورحمته[4].

موضع التعليق بالمحال في الآيات الكريمة:

يتجلى هذا الأسلوب عند قوله تعالى: ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا . إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ﴾ وبيانه: أن النبي ﷺ قد صرح بأنه لن يجد ملجأ يعتصم به ويجيره من الله إن أراد به سوءا إلا أن يبلِّغ عن الله رسالاته، وإذا كان البلاغ هو الذي

(١) يراجع: معاني القرآن وإعرابه (٤/٤٢٨)، وتفسير البيضاوي (٥/١٠٤).
(٢) سورة:(الجن)، الآيات:(٢١-٢٣).
(٣) يراجع: التفسير الوسيط، د/ محمد سيد طنطاوي (١٥/١٤٣) بتصرف.
(٤) يراجع: معاني القرآن (٣/١٩٥)، والدر المصون (١٠/ ٥٠٠-٥٠١).

يجيره من عذاب الله فمحال له ﷺ أن يترك التبليغ، فكأنه ﷺ يقول: إن كان المشركون قد أجمعوا على عداوتي وصدوا عن دعوتي فمحال أن أترك التبليغ الذي أملكه وأستطيعه، ولعل مما يؤيد هذا المعنى قوله لعمه أبي طالب:«يا عم، لو وُضِعَتِ الشمسُ في يميني والقمرُ في يساري ما تركْتُ هذا الأمر حتى يُظهِرَه الله تعالى أو أَهلِكَ في طلبه»(١)، وعلى هذا المعنى ففائدة الاستثناء هنا:«المبالغة في توصيف نفسه بالتبليغ، لدلالته على أنه لا يدَع التبليغ الذي يستطيعه لتظاهرهم على عداوته»(٢).

وممن نص على وجه التعليق بالمحال هنا وصرح به الإمام عصام الدين القونوي، فقال:«وقيل: إنه من التعليق بالمحال، كقوله تعالى:﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾»(٣)، وجعله الإمام الآلوسي من باب قول النابغة الذبياني:«ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ...»(٤).

وأما الإمام ابن عاشور فقد رد هذا الأسلوب إلى «تأكيد الشيء بما يشبه ضده» فقال:«ويجوز أن يكون مع ذلك استثناء من ﴿مُلْتَحَدًا﴾ أي: بتأويل ﴿مُلْتَحَدًا﴾ بمعنى: مَخْلَصٍ أو مَأْمَن، وهذا الاستثناء من أسلوب «تأكيد الشيء بما يشبه ضده»»(٥)، وبيان ذلك: أن المستمع يتوقع بعد الاستثناء أن يسمع أمرا يتنافى مع ما قبل الاستثناء، فالنبي ﷺ ينفي أن يجد من دون الله ملجأ ثم استثنى، وهنا ينتظر المستمع أن يأتي بعد الاستثناء أمر يناقض ما قبله، لكن جاء ما بعد الاستثناء مؤكِّدا لما قبله، وهو أنه ﷺ لا يملك لهم إلا التبليغ والرسالات، وهذا إن دل فإنما يدل على أن الاعتصام بأمر الله هو الملجأ وقت

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (١٨٧/٢).
(٢) روح البيان (١٩٩/١٠).
(٣) حاشية القونوي (٣٦١/١٩).
(٤) روح المعاني (١٠٥/١٥).
(٥) التحرير والتنوير (٢٤٤/٢٩).

الشدائد بل في كل وقت.

الموضع الثاني عشر

قال تعالى:﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ ﴾[١].

جاءت الآيتان في سياق الحديث عن بيان سوء عاقبة الكافرين، حيث وصفهم الله ﷻ بأنهم ليس لهم طعام يطعمونه إلا من أقبح الطعام وأشنعه وأشده مرارة وهو الضريع[٢].

موضع التعليق بالمحال في هاتين الآيتين:

يتجلى هذا الأسلوب في قوله تعالى:﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ وبيانه: أن الآية الكريمة تنفي عن الكفار المعذَّبين في جهنم الطعام أصلا إلا من الضريع، وإذا كان الضريع لا يُعَد طعاما للبهائم فضلا عن الإنس، فمحال أن يكون لهم طعاما أصلا، فكأن الله تعالى يقول: ليس لهم طعام طيب يتغذون به، ولذلك نفى الله عنه منفعتي الغذاء وهما:(الإسمان في البدن، والإغناء من الجوع).

وممن نص على هذا الأسلوب وصرح به الإمامان (الشهاب الخفاجي، والقونوي)، حيث نقلا عبارة الإمام الزمخشري[٣] على هذه الآية ثم علقا بقولهما:«فهو تعليق بالمحال أريد به النفي على آكد وجه، كقوله تعالى:﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾»[٤].

وأما الإمام السمين فقد أشار إلى وجه التعليق بالمحال في هذه الآية

(١) سورة:(الغاشية)، الآيتان:(٦-٧).

(٢) الضريع: نبات أخضر منتن، وهو مرعى سوء لا تعقد عليه السائمة شحما ولا لحما، وإن لم تفارقه إلى غيره ساءت حالها. لسان العرب (٨/ ٢٢٣)، مادة:(ضرع)

(٣) يراجع: تفسير الكشاف (٤/٧٤٣).

(٤) حاشية الشهاب (٨/٣٥٣)، وحاشية القونوي (٢٠/٢٣٣).

ضمنا وأنها تنفي الطعام أصلا عن الكفار المعذَّبين فقال:«المراد: نفي الشيء بدليله، أي: إن كان لهم طعام فليس إلا هذا الذي لا يعُده أحد طعاما، ومثله:«ليس له ظل إلا الشمس»»[١].

ولعل مما يؤكد هذا المعنى ظاهر الآية، فما قبل الاستثناء وهو قوله:﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ﴾يفيد التيئيس من إيجاد أي طعام لهم، وهذا فيه قطع بهلاكهم وعذابهم، فإذا ما تلفظ المتكلم بـ﴿إِلَّا﴾دار في خُلْد السامع قبل النطق بما سيُذكَر بعدها أن الآتي مستثنى من الذم السابق، فإذا أتى بعدها صفة ذم أخرى تأكد الذم لكونه ذما على ذم، فما قبل﴿إِلَّا﴾نفي للطعام كله، وما بعدها إثبات لنوع من أقبح الطعام وأشنعه وأشده مرارة وهو الضريع، وكلاهما ذم، وهذا فيه ما فيه من التهكم بهم وازدياد الحسرة عليهم، نعوذ بالله من النار وعذابها.



(١) الدر المصون (٧٦٨/١٠).

المبحث الثاني

تلبُّس التعليق بالمحال بـ«الشرط»، وفيه ثمانية مواضع

الموضع الأول

قال تعالى:﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[١].

وردت هذه الآية في سياق دعاء سيدنا عيسى عليه السلام وهو يخاطب ربه ويفوض الأمر إليه في شأن قومه، فقال كما حكى القرآن عنه:﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي: إن تعذب يا إلهي قومي فإنك تعذب عبادك الذين خلقتهم وتملكهم ملكا تاما، وإن تغفر لهم وتستر سيئاتهم فذلك إليك وحدك؛ لأنك القوي القاهر الذي لا يعجزه شيء، والذي يضع الأمور في مواضعها بمقتضى حكمته السامية[٢].

وهذه الآية الكريمة اختلف العلماء فيها من حيث احتوائها على التعليق بالمحال على النحو التالي:

القول الأول: يرى أن الآية لا تعليق بالمحال فيها؛ لأن العذاب والمغفرة أمران ممكنان والله قادر عليهما، فعيسى عليه السلام يعترف بأن قومه عباد لله ويسلِّم الأمر فيهم لحكم الله وحده، وأنه إن عذبهم فبعدله، وإن غفر لهم فبعزته وحكمته، وقد أشار إلى هذا القول بعض المفسرين كـ(الطبري، والبيضاوي)[٣]، ورجحه الإمام ابن عطية[٤]، قال الإمام ابن كثير:«معنى قوله:﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾الآية: التبرِّي منهم ورد المشيئة فيهم إلى الله، وتعليق ذلك على الشرط لا يقتضي وقوعه»[٥].

---

(١) سورة:(المائدة)، الآية:(١١٨).

(٢) جامع البيان (٢٤٠/١١)، والتفسير الوسيط، د/ محمد سيد طنطاوي (٣٥١/٤).

(٣) يراجع: جامع البيان (٢٤٠/١١)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل (١٥١/٢).

(٤) المحرر الوجيز (٢٦٣/٢).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٢٣٢/٣).

القول الثاني: يرى أن الآية بها تعليق بالمحال في شطرها الثاني وهو قوله تعالى:﴿ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾، وذلك استنادا إلى المفهوم العقدي أن مغفرة الله للكافرين أمر مستحيل(١).

ولم أقف على كلام لأحد من المفسرين نص صراحة على وجه التعليق بالمحال هنا، لكني استنبطتُ هذا الوجه من خلال تفسيرهم لهذه الآية، ومن أبرز المفسرين الذين أشاروا إلى هذا الوجه:

١) الإمام الزمخشري: قال عند تفسيره لهذه الآية:«إن تعذبهم فإنهم عبادك الذين عرفتهم عاصين جاحدين لآياتك مكذبين لأنبيائك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز القوي القادر على الثواب والعقاب، الحكيم الذي لا يثيب ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب»(٢).

فيُفهَم من كلام الإمام الزمخشري أنه إذا كان هؤلاء العباد قد عصوا رب العالمين وجحدوا آياته وكذبوا رسله، فإنه ﷻ إن عذبهم فله الحق في ذلك لأنهم عباده، لكن مغفرة الله لا تكون لمن عاش منهم على الكفر ومات عليه؛ لأنه سبحانه أخبر أنه لا يفعل ذلك بقوله:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾(٣)؛ لأنه ﷻ عزيز حكيم، وعزته وحكمته تقتضيان عدم المغفرة لمن مات منهم على الكفر.

٢) الإمام القرطبي: تبنى نفس الاتجاه، وبين أن العزة والحكمة هما دليل على

---

(١) قال بعض المفسرين: كيف جاز لعيسى عليه السلام أن يقول:﴿ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ ﴾، والله لا يغفر أن يُشرَك به؟ ذكر القرطبي في ذلك عدة أجوبة، واستحسن منها الرأي القائل بأن الهاء والميم في ﴿ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ ﴾ لمن مات منهم على الكفر، والهاء والميم في ﴿ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ ﴾لمن تاب منهم قبل الموت». الجامع لأحكام القرآن (٣٧٨/٦) قلت: هذا الوجه الذي استحسنه الإمام القرطبي قد اكتفى به بعض المفسرين كالجلالين في تفسيرهما (ص: ١٦١)، والخطيب الشربيني في السراج المنير (٤٠٨/١)، ومع وجاهة هذا الوجه فالآية الكريمة حكاية للتفويض المطلق الذي فوضه سيدنا عيسى عليه السلام إلى ربه سبحانه في شأن قومه.

(٢) تفسير الكشاف (٦٩٦/١).

(٣) سورة:(النساء)، من الآية:(٤٨).

أن الله تعالى لا يغفر لمن مات على الكفر، وبالتالي يعتبر هذا تعليقا على المحال، قال رحمه الله عند تفسيره لهذه الآية:«وقال:﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ولم يقل:(فإنك أنت الغفور الرحيم) على ما تقتضيه القصة من التسليم لأمره والتفويض لحكمه، ولو قال:(فإنك أنت الغفور الرحيم) لأوهم الدعاءَ بالمغفرة لمن مات على شركه وذلك مستحيل»(١).

الراجح/

القول الذي أميل إليه هو القول (الأول) القائل بأن الآية لا تعليق بالمحال فيها؛ لأن المغفرة ليست مستحيلة، بل هي راجعة إلى مشيئة الله وحكمته، وهذا القول من سيدنا عيسى ﷺ تعبير منه عن التسليم المطلق والاعتراف الكامل بقدرة الله المطلقة على العفو والعقاب دون وجود شرط أو استحالة من الناحية العقدية، فإنه سبحانه إن عذبهم فبعدله، وإن عفا عنهم وغفر لهم فبعزته وحكمته، وقد أشار الإمام البيضاوي إلى هذا المعنى واكتفى به في تفسيره للآية فقال:«إن تعذبهم فإنك تعذب عبادك، ولا اعتراض على المالك المطلق فيما يفعل بملكه، وفيه تنبيه على أنهم استحقوا ذلك لأنهم عبادك وقد عبدوا غيرك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم، فإن عذبْتَ فعدل وإن غفرْتَ ففضل»(٢).

الموضع الثاني

قال تعالى:﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾(٣).

مما ورد في سبب نزول الآية الكريمة: أن الحارث بن عامر(٤) أتى

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣٧٨/٦) بتلخيص.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١٥١/٢) بتلخيص.

(٣) سورة:(الأنعام)، الآية:(٣٥).

(٤) الحارث بن عامر: هو الحارث بن عامر، وقيل: عثمان بن نوفل بن عبد مناف بن قصي بن كلاب، من سادات قريش في الجاهلية، أدرك الإسلام ولم يُسْلِم، وكان يكذِّب النبيَّ ﷺ في =

رسولَ الله ﷺ في نفر من قريش فقال: يا محمد، ائتنا بآية كما كانت الأنبياء تأتي قومها بالآيات، فإن فعلتَ آمنا بك، فنزلت هذه الآية(١).

موضع التعليق بالمحال في الآية الكريمة:

يظهر وجه التعليق بالمحال عند قوله ﷻ: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾، وبيانه: أن الله يخاطب نبيه ﷺ أنه إذا كان يشعر بثِقَل إعراض الناس عن دعوته، فلو استطاع أن يبحث عن نفق في الأرض أو سُلَّم في السماء ليأتيهم بمعجزة تدفعهم إلى الإيمان فليفعل، وهذا تعبير عن أمر مستحيل، وهذه الاستحالة تؤكد على أن جمْع الناس على الهداية مرهون بمشيئة الله وليس بقوة المعجزات وحدها.

وتوجيه الآية الكريمة على التعليق بالمحال قال به ضمنا بعض المفسرين، وحاصل كلامهم أنها جاءت لتسلية النبي ﷺ وتخفيف شعوره بصعوبة إعراض قومه عنه، وأنه لو أمكن له أن يتخذ سِرْبا في الأرض أو مصعدا يصعد عليه ليأتي بآية جديدة تُقنِع هؤلاء المعرضين لفعل، وبالتالي فإعراض هؤلاء القوم عنه وعدم إيمانهم به ليس نتيجة نقص في دعوته، بل هو جزء من مشيئة الله وحكمته(٢).

بينما نص الإمامان (الشوكاني، والآلوسي) على التعليق بالمحال في هذه الآية، فها هو الإمام الشوكاني يقول:«كان النبي ﷺ يَكْبُر عليه إعراض قومه ويتعاظمه ويحزن له، فبين له الله سبحانه أن هذا الذي وقع منهم من توليهم عن الإجابة له والإعراض عما دعا إليه هو كائن لا محالة، وليس في استطاعته وقدرته إصلاحهم وإجابتهم قبل أن يأذن الله بذلك، ثم علق ذلك بما

=

العلانية، فإذا خلا مع أهل بيته قال:«ما محمد من أهل الكذب ولا أحسبه إلا صادقا»، فنزلت هذه الآية. دلائل النبوة (ص: ٤١)

(١) زاد المسير (٢/٢٥).

(٢) يراجع: جامع البيان (١١/٣٣٦-٣٤٠)، والجامع لأحكام القرآن (٦/٤١٧-٤١٨).

هو محال فقال:﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ ...»[١].

وأما الإمام الآلوسي فقد نص على هذا الوجه البلاغي وأفصح عن دلالته في هذه الآية بقوله:«المعنى: إن شق عليك إعراضهم فلو قدَرْتَ أن تأتي بالمحال أتيتَ به، والمقصود: بيان أنه ﷺ بلغ في الحرص على إيمانهم إلى هذه الغاية، وفيه إشعار ببُعْد إسلامهم»[٢].

وبهذا يتبين أن بلاغة التعليق بالمحال هنا تظهر في التأكيد على استحالة تحقيق الطلب المذكور فيها، وليس لإرشاد النبي ﷺ للبحث عن نفق أو سُلَّم حقيقي، وأنه ﷺ مهما بذل من جهد مادي في الدعوة أو سعى لطلب آيات خارقة فإنهم لن يؤمنوا ما لم يشأ الله لهم ذلك، وعلى هذا فالمقصود من الآية كما قال الإمام الرازي:«أن يقطع الرسول طمعه عن إيمانهم، وأن لا يتأذى بسبب إعراضهم عن الإيمان وإقبالهم على الكفر»[٣].

الموضع الثالث

قال تعالى:﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ﴾[٤].

تشير هذه الآية أن موسى عليه السلام تطلع للقاء ربه، وأنه قال حينما كلمه: رب مكِّني من رؤية ذاتك الجليلة أو تَجَلَّ لي أنظر إليك، فكان الجواب:﴿لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ﴾ ويظهر وجه التعليق بالمحال هنا على رأي القائلين به في بيان أن رؤية الله قد عُلِّقت على شرط محال–وهو استقرار الجبل عند تجلِّيه سبحانه– وإذا كان الجبل الذي هو أعظم المخلوقات قوة وصلابة لم يتحمل التجلي الإلهي واندك وانهار، فهذا

(١) فتح القدير (١٢٨/٢) بتصرف وتلخيص.

(٢) روح المعاني (١٣١/٤).

(٣) مفاتيح الغيب (٥٢٠/١٢).

(٤) سورة:(الأعراف)، من الآية:(١٤٣).

يدل على استحالة تحمل المخلوقات لرؤية الله في الدنيا، قال الشوكاني:«وقيل: هو من باب التعليق بالمحال، وعلى تسليم هذا فهو في الرؤية في الدنيا»[١].

هذا وقد دار خلاف بين أهل السنة والمعتزلة حول تعليق الرؤية الإلهية على استقرار الجبل، هل هي جائزة أم ممتَنَعَة، وبيان ذلك:

<u>القول الأول</u>: يرى المعتزلة أن تعليق الرؤية الإلهية على استقرار الجبل يدل على استحالتها لأنها عُلِّقت على شرط محال، واستدلوا بقوله تعالى لموسى عليه السلام:﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، وقالوا بأن ﴿لَن﴾ هنا موضوعة لنفي التأبيد، ومن هنا قالوا: إن رؤية الله في الدنيا والآخرة أمر مستحيل[٢]، قال القاضي عبد الجبار:«ومما يجب نفيه عن الله تعالى الرؤية»[٣].

ومما تجدر الإشارة إليه أن الإمام الزمخشري قلد المعتزلة فيما ذهبوا إليه لأنه يعتقد اعتقادهم من أن الله لا يُرَى لا في الدنيا ولا في الآخرة فقال:«فإن قلت: ما معنى:﴿لَن﴾؟ قلت: تأكيد النفي الذي تعطيه «لا»، وذلك أن «لا» تنفي المستقبل، تقول:(لا أفعل غدا)، فإذا أكدتَّ نفيهَا قلت:(لن أفعل غدا)، فقوله:﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾[٤] نفي للرؤية فيما يُستقبَل، و﴿لَن تَرَىٰنِي﴾تأكيد وبيان؛ لأن المنفي مناف لصفاته»[٥].

ففي هذا النص لم يستخدم الإمام الزمخشري لفظ التأبيد صراحة بل استخدم لإفادة معناه ألفاظا أخرى تدل عليه، كعبارة (مناف لصفاته)، وعبارة المنافاة هذه جعلها بمثابة التأبيد، ثم أكد في نص آخر على دلالة ﴿لَن﴾ في

(١) فتح القدير (٢/٢٧٧).

(٢) هذا القول حكاه عن المعتزلة: الإمام الأشعري في مقالات الإسلاميين (١/١٣١)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/١٥١)، وابن كثير في تفسيره (٣/٤٦٩).

(٣) شرح الأصول الخمسة (ص: ٢٣٢).

(٤) سورة:(الأنعام)، من الآية:(١٠٣).

(٥) تفسير الكشاف (٢/١٥٤) بتلخيص.

هذه الآية على التأبيد بتشبيه النظر إلى الله تعالى بنسبة الولد إليه، فكما أن نسبة الولد إليه مستحيلة على التأبيد فكذلك النظر إليه سبحانه، والدليل على ذلك أنه حقق عند طلب النظر إليه ما جعله عند نسبة الولد إليه في قوله:﴿ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾(١).

القول الثاني: يرى أهل السنة أن تعليق الرؤية الإلهية على استقرار الجبل يدل على أنها جائزة، وقد دلت الآية على جواز رؤيته من وجهين:

الأول: أن سؤال موسى عليه السلام الرؤية يدل على إمكانها؛ لأن العاقل فضلا عن النبي ﷺ لا يطلب المحال.

الثاني: أن الله تعالى علق رؤيته على أمر جائز هو استقرار الجبل، والمعلَّق على الجائز جائز، فموسى عليه السلام سأل الرؤية وهو عارف بما يجب ويجوز ويمتنع على الله تعالى، فلو كانت الرؤية ممتَنَعَة لما سألها(٢).

المناقشة:

- استدلال المعتزلة بأن ﴿لَن﴾ في قوله تعالى:﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ موضوعة لنفي التأبيد غير صحيح، ويُرَد عليهم من وجوه:

الوجه الأول:﴿لَن﴾ هنا لا تقتضي النفي المؤبَّد، بل هي أداة ناصبة لتأكيد النفي في المستقبل(٣)، وقد شهد ابن مالك بما عليه أهل السنة والجماعة من أن ﴿لَن﴾ هنا ليست لتأبيد النفي، فقال:

«ومن رأى النفي بـ(لن) مؤبَّدا ... فقوله اردد وخلافه اعضدا»(٤).

---

(١) سورة:(مريم)، الآيتان:(٩٠-٩١)، ويراجع: تفسير الكشاف (١٥٤/٢-١٥٥).

(٢) يراجع: تفسير القرطبي (٢٧٩/٧)، وإرشاد العقل السليم (٢٦٩/٣).

(٣) معاني القرآن وإعرابه (٣٧٣/٢). ويُقصَد بـ(تأكيد النفي في المستقبل): نفي وقوع الحدث في المستقبل فقط دون الإشارة إلى الأبدية.

(٤) شرح الكافية الشافية (١٥١٥/٣). ومراد ابن مالك بهذا البيت: أن القول الآخر قوِّه ورُدَّ قول من يقول: إن النفي بـ(لن) مؤبَّد، فبطل بذلك قول أولئك المعتزلة.

ورد الإمام البغوي على نفاة الرؤية المتمسكين بـ﴿لَن﴾فقال:«تعلقت نفاة الرؤية بظاهر هذه الآية، وقالوا: قال الله:﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، و﴿لَن﴾تكون للتأبيد، ولا حجة لهم فيها، ومعنى الآية: لن تراني في الدنيا أو في الحال؛ لأنه كان يسأل الرؤية في الحال، و﴿لَن﴾لا تكون للتأبيد، وقد علق سبحانه الرؤية على استقرار الجبل، واستقرار الجبل عند التجلي غير مستحيل إذا جعل الله تعالى له تلك القوة، والمعلق بما لا يستحيل لا يكون محالا»(١).

<u>الوجه الثاني</u>: أن الله ﷻلو قال مثلا:(لن تراني أبدا) وقُيِّدَت ﴿لَن﴾في الآية الكريمة بـ(الأبد) لما دل ذلك على نفي الرؤية مطلقا؛ لأن (الأبد) هنا له غاية محدودة هو هذه الحياة الدنيا فقط؛ لأن الكليم موسى عليه السلام سأل الله ﷻ الرؤية في الدنيا فقال:﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾، فأجابه الله في حدود هذه الدنيا بقوله:﴿لَن تَرَىٰنِي﴾أي: في الدنيا(٢)، ولم يتعرض لقضية الآخرة، فكيف وقد جاءت مطلقة لا مقيدة؟

<u>الوجه الثالث</u>: مما يدل على أن النفي بـ﴿لَن﴾ هنا لا يفيد التأبيد: أنه قد ورد في بعض الآيات النفي بـ﴿لَن﴾وجاء مع ذلك ما يدل على عدم التأبيد، ومن ذلك: نفيه ﷻ عن اليهود تمنِّي الموت في الدنيا، قال تعالى:﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾(٣)، ثم أخبر عنهم بتمنيه في النار حين يقولون:﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ﴾(٤)، فلما أخبر الله عنهم أنهم لن يتمنوا الموت في الدنيا ثم أخبر أنهم يتمنونه في الآخرة دل ذلك على أن ﴿لَن﴾ هنا ليست للتأبيد المطلق، بل غاية ما تدل عليه أنهم لن يتمنوه في هذه الدنيا، فإذا كان النفي مع التأبيد

(١) معالم التنزيل (٢/٢٢٩) بتلخيص.
(٢) معالم التنزيل (٢/٢٢٨)، وزاد المسير (٢/١٥٢).
(٣) سورة:(البقرة)، من الآية:(٩٥).
(٤) سورة:(الزخرف)، من الآية:(٧٧).

المصرح به كما في قوله تعالى:﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ لا يدل على النفي المؤبد لأنهم تمنوا الموت بعد ذلك، فكيف يفيده النفي غير المقرون بالتأبيد في قوله تعالى:﴿لَن تَرَىٰنِي﴾(١)؟!

- استدلالهم بقوله تعالى:﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ على استحالة رؤية الله غير صحيح، ويُرَد عليهم من وجوه:

الأول: أن الآية دالة على أن موسى عليه السلام سأل الرؤية، ولا شك أنه يكون عارفا بما يجب ويجوز ويمتنع على الله تعالى، فلو كانت الرؤية ممتَنَعة لما سألها، وحيث سألها علمنا أنها جائزة على الله تعالى.

الثاني: أنه تعالى لو كان مستحيل الرؤية لقال:(لا أُرَى)، فلما قال تعالى:﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ دل هذا على أنه تعالى في ذاته جائز الرؤية.

الثالث: أنه تعالى علق رؤيته على استقرار الجبل، واستقرار الجبل أمر جائز الوجود في نفسه، فثبت أنه تعالى جائز الوجود في نفسه.

الرابع: أنه تعالى قال:﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾، فإذا جاز أن يتجلى للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب، فكيف يمتنع أن يتجلى لرسله وأوليائه في دار كرامته؟ ولكن الله تعالى أعلم موسى عليه السلام أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار فالبشر أضعف(٢).

الترجيح:

من خلال ما سبق يتبين أن الآية الكريمة ليس فيها تعليق بالمحال كما زعمت المعتزلة، وأن رؤية الله عز وجل جائزة، قال الواحدي:«قال أصحابنا: علق الله تعالى جواز الرؤية على استقرار الجبل، واستقراره كان جائزا كذلك الرؤية كانت جائزة، ولكن الله لم يخلقها لموسى»(٣).

---

(١) زاد المسير (١٥١/٢) بتصرف وزيادة.

(٢) مفاتيح الغيب (٣٥٤/١٤)، وشرح العقيدة الطحاوية (٢١٣/١-٢١٤) بتلخيص.

(٣) التفسير البسيط (٣٣٥/٩) بتلخيص.

بل اتفقت كلمة الأشاعرة على جواز رؤية الله ﷻ، فهذا إمامهم الأعظم الإمام أبو الحسن الأشعري يقول:«مما يدل على أن الله تعالى يُرَى بالأبصار قول موسى ﷺ:﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ ﴾، ولا يجوز أن يكون موسى -صلوات الله عليه وسلامه- قد سأل ربه ما يستحيل عليه، فإذا لم يجز ذلك على موسى ﷺ علِمنا أنه لم يسأل ربه مستحيلا، وأن الرؤية جائزة على ربنا تعالى، ولو كانت الرؤية مستحيلة على ربنا تعالى كما زعمت المعتزلة ولم يعلم ذلك موسى ﷺ وعلِموه هم لكانوا على قولهم أعلم بالله من موسى ﷺ، وهذا مما لا يدعيه مسلم»(١).

وبهذا يتبين أن أهل السنة القائلين بجواز رؤية الله يرون أن هذه الرؤية ليست ممتَنَعة في ذاتها، وإنما عُلِّقت على شرط -وهو استقرار الجبل- وتكمن بلاغة تعليق الرؤية على الشرط في عدة أمور منها:

أولا: بيان قدرة الله المطلقة: فالله ﷻ قادر على أن يجعل الجبل مستقرا إذا شاء، واستقراره ليس مستحيلا في ذاته، وبالتالي تعليق الرؤية على استقراره يدل على إمكانها لا استحالتها.

ثانيا: بيان عظمة الله وجلاله: فالغرض من التعليق في هذه الآية إظهار عظمة الله وتنزيهه عن مشابهة خلقه، وضعف المخلوقات بما فيهم الجبال عن إدراك ذاته أو رؤيته في الدنيا، فإذا كان الجبل الذي هو رمز القوة والثبات لم يتحمل تجلي الله واندك، فكيف بالبشر الضعيف؟

(١) الإبانة عن أصول الديانة (ص: ٤١) بتلخيص، الباب الأول: الكلام في إثبات رؤية الله سبحانه بالأبصار في الآخرة.

الموضع الرابع

قال تعالى:﴿ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾(١).

تحكي الآية الكريمة أن المشركين قد بلغ بهم الجحود والعناد أنهم لم يكتفوا بإنكار أن القرآن من عند الله وأن محمدا ﷺقد جاءهم بالحق، بل أضافوا إلى ذلك قولهم: اللهم إن كان هذا الذي جاءنا به محمد من قرآن وغيره هو الحق المنزل من عندك فأمطِر علينا حجارة من السماء تُهلِكنا عقوبة على إنكاره والكفر به أو ائتنا بعذاب أليم سواه(٢).

موضع التعليق بالمحال في الآية الكريمة:

يظهر وجه التعليق بالمحال في الآية كلها، وبيانه: أن طلب المشركين للعذاب بقولهم: ﴿فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ معلَّق على قولهم:﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ ﴾، وهو أمر يعبر عن نوع من المستحيل بالنسبة لهم؛ لأنهم في الأصل لا يؤمنون بالحق الذي جاءهم به النبي ﷺ، ولم يكونوا يطلبون وقوع العذاب فعلا، بل الهدف من تعليق طلبهم على هذا الشرط هو إظهار شدة عنادهم وجحودهم ، وقد بين الإمام أبو حيان

(١) سورة:(الأنفال)، الآية:(٣٢).

(٢) تفسير البيضاوي (٥٧/٣)، والتفسير الوسيط، د/ محمد سيد طنطاوي (٨٩/٦).

دار خلاف بين المفسرين في قائل القول المذكور في هذه الآية على النحو التالي:

الأول: يرى أن القائل هو (النضر بن الحارث)، صاحب القول السالف:﴿لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ ﴾. الثاني: يرى أن القائل هو (أبو جهل بن هشام).

الثالث: يرى أن القائل هم (كفار قريش). يراجع: السيرة النبوية لابن هشام (٦٧٠/١)، وجامع البيان (٥٠٥/١٣)، وأسباب النزول (ص: ٢٣٩)

قلت: اختلاف الروايات في قائل هذا القول لا يعني بالضرورة التناقض بينها، بل قد يشير إلى تعدد المواقف التي نزلت فيها هذه الآية، فقد تكون نزلت عندما قال النضر أو أبو جهل هذا القول وكانا يمثِّلان موقف قريش عامة في تحديهم للنبي ﷺ.

دلالة تعليق طلبهم على هذا الشرط بقوله: «وهذه الجملة الشرطية فيها مبالغة في إنكار الحق عظيمة، أي: إن كان حقا فعاقِبْنا على إنكاره بإمطار الحجارة علينا أم بعذاب آخر»[١].

وممن نص على وجه التعليق بالمحال في هذه الآية الإمام الزمخشري، ووافقه في ذلك بعض المفسرين[٢]، قال الإمام الزمخشري: «وهذا أسلوب من الجحود بليغ، يعني: إن كان القرآن هو الحق فعاقِبْنا على إنكاره بالسجيل كما فعلتَ بأصحاب الفيل أو بعذاب آخر، ومراده نفي كونه حقا، وإذا انتفى كونه حقا لم يستوجب منكره عذابا، فكان تعليق العذاب بكونه حقا مع اعتقاد أنه ليس بحق كـ(تعليقه بالمحال) في قولك:«إن كان الباطل حقا فأمطِر علينا حجارة»»[٣].

وعلى هذا فقولهم:﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ ﴾يفترض على رأيهم احتمال أن يكون القرآن حقا من الله ﷻ، لكنهم بدلا من طلب الهداية والإيمان إذ ثبت لهم حقية القرآن اختاروا أن يُظهِروا جحودهم وعنادهم، وطلبوا ما يتصورون أنه مستحيل –وهو إنزال العذاب عليهم إما على شكل حجارة من السماء أو عذاب أليم سواه– فكأنهم أرادوا بذلك كما قال الإمام ابن عاشور:«أن يُظهِروا لقومهم صحة جزمهم بعدم حقية القرآن، فأعلنوا الدعاء على أنفسهم بأن يصيبهم عذاب عاجل إن كان القرآن حقا من الله ليستدلوا بعدم نزول العذاب على أن القرآن ليس من عند الله»[٤].

وتكمن بلاغة تعليق طلب المشركين للعذاب على قولهم:﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ ﴾في عدة أمور منها:

(١) تفسير البحر المحيط (٣١٠/٥).
(٢) منهم: الإمام أبو حيان في تفسيره (٣١٠/٥)، والنيسابوري في تفسيره (٣٩٥/٣).
(٣) تفسير الكشاف (٢١٦/٢).
(٤) التحرير والتنوير (٣٣٢/٩).

أولا: بيان مدى شدة استكبار المشركين وجحودهم، ولذلك جاء الرد الإلهي عليهم في الآية التالية ببيان أنه سبحانه قد أمهلهم ولم يستجب لطلبهم بإهلاكهم فورا، قال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[1].

ثانيا: تذكير المؤمنين بأن طلب الحق ينبغي أن يكون بغرض الهداية لا التحدي والاستهزاء، قال الإمام ابن كثير:«كان الأوْلى لهم أن يقولوا:«اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدِنا له ووفقنا لاتباعه»، ولكن استفتحوا على أنفسهم واستعجلوا العذاب وتقديم العقوبة»[2].

الموضع الخامس

قال تعالى:﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾[3].

في هذه الآية توبيخ لهؤلاء الذين يعبدون الله على حرف، وبيان أنهم قد صحِبهم القلق وظنوا أن الله لن ينصر رسوله وأولياءه في الدنيا والآخرة، هذا وقد اختلف المفسرون في عود الضمير في قوله:﴿يَنصُرَهُ﴾وفي المعنى المترتب عليه على قولين:

__القول الأول:__ يرى أن الضمير في قوله:﴿يَنصُرَهُ﴾يعود إلى النبي ﷺ، والنصر هنا بمعنى:(حسن المعونة والإظهار بالغلبة)، والمعنى: مَن كان مِن الناس يظن أن لن ينصر الله نبيه محمدا ﷺفي الدنيا والآخرة فليمدد بحبل إلى السماء–أي: إلى سقف بيته[4]– ثم ليختنق به، فليتفكر في أمره هل

(١) سورة:(الأنفال)، الآية:(٣٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/٤٧).
(٣) سورة:(الحج)، الآية:(١٥).
(٤) في المراد بـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾هنا قولان:
الأول: سماء البيت –أي: سقفه–. الثاني: سماء الدنيا المعروفة. زاد المسير (٣/٢٢٧)
=

فعْله هذا يُذهِب نصر الله الذي يغيظه[١]؟ وعلى هذا فالمقصود بالآية الكريمة: بيان أن الله تعالى ناصر رسوله في الدنيا والآخرة لا محالة، وأنه لن يحول بين تنفيذه حائل مهما فعل الكافرون.

القول الثاني: يرى أن الضمير في قوله:﴿يَنصُرَهُ﴾يعود إلى ﴿مَن﴾في قوله:﴿مَن كَانَ يَظُنُّ﴾، والنصر هنا بمعنى:(الرزق)، والمعنى: مَن كان مِن الناس يظن أن لن يرزقه الله في الدنيا والآخرة فليمدد بحبل إلى سماء بيته ثم ليختنق به، فلينظر هل يُذهِبَن فعله ذلك ما يغيظه أنه لا يُرزَق[٢]، وعلى هذا فالمقصود بالآية الكريمة: بيان أن الأرزاق بيد الله لا تنال إلا بمشيئته، ولابد للعبد من الرضا بقسمته.

الراجح/ يبدو أن أقرب الأقوال إلى الصواب:**(القول الأول)**، وعليه جمهور المفسرين[٣]، وقد استحسن هذا القول أبو جعفر النحاس فقال:«من أحسن ما قيل فيها أن المعنى: من كان يظن أن لن ينصر الله جل وعز محمدا ﷺ، وأنه يتهيأ له أن يقطع النصر الذي أوتيه ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: فليطلب حيلة يصل بها إلى السماء ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾أي: ثم ليقطع النصر إن تهيأ له، فلينظر هل يذهبن كيده وحيلته ما يغيظه من نصر النبي ﷺ»[٤].

موضع التعليق بالمحال في الآية الكريمة:

بناء على ترجيح الرأي الأول يظهر وجه التعليق بالمحال في هذه الآية

=

قلت: يمكن الجمع بين القولين باعتبار أن الآية تشمل المعنيين ضمن بلاغة النص القرآني واتساع مدلولاته، وإن كان المعنى الأول قد قال به كثير من المفسرين لكن لا مانع من إرادة المعنى الثاني كتعبير عن جهة العلو أو طلب المستحيل، والله أعلم.

(١) جامع البيان (٥٧٩/١٨)، والتفسير البسيط (٣٠٨/١٥).

(٢) جامع البيان (٥٨٢/١٨)، والكشف والبيان عن تفسير القرآن (١١/٧).

(٣) الكشف والبيان عن تفسير القرآن (١١/٧)، والتفسير البسيط (٣٠٧/١٥).

(٤) إعراب القرآن (٦٣/٣).

عند قوله ﷻ:﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾، وبيانه: أن من كان يظن أن الله لن ينصر رسوله والمؤمنين في الدنيا والآخرة فإنه في غيظ دائم لا يزول إلا بمحال مثل هذا الفعل، وهو أن يطلب سببا يصل به إلى السماء ثم ليقطع النصر إن تهيأ له، أو ثم ليقطع عن النبي ﷺ الوحي الذي يأتيه فإن أصله في السماء، فالفعل المستحيل المطلوب هنا (الصعود إلى السماء وقطع السبب) هو تعليق بالمحال؛ لأنه ببساطة خارج حدود قدرة الإنسان، وإذا كان ذلك ممتنعا كان غيظه عديم الفائدة.

هذا ولم أقف على كلام لأحد من المفسرين نص صراحة على وجه التعليق بالمحال هنا، لكني استنبطتُ هذا الوجه من خلال ما قالوه عند تفسيرهم لهذه الآية، ومن أبرز المفسرين الذين أشاروا إلى هذا الوجه: الإمام الرازي، فعند تفسيره لهذه الآية قاس هذا الأسلوب على آية سورة (الأنعام) فقال:«واعلم أن المقصد على كل هذه الوجوه معلوم، فإنه زجر للكفار عن الغيظ فيما لا فائدة فيه، وهو في معنى قوله:﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾[1]، مبينا بذلك أنه لا حيلة له في الآيات التي اقترحوها»[2].

من خلال ما سبق يتبين أن الآية الكريمة تتحدث عن شخص يظن أن الله لن ينصر رسوله أو دينه في الدنيا والآخرة، وتوجه إليه تحد يدل على يأسه وضعفه، وتكمن بلاغة التعليق بالمحال هنا فيما يلي:

أولا: تصوير عجز هذا الإنسان المغتاظ وضعف اعتقاده بأسلوب ساخر يتناسب مع الموقف، وإظهار أن أي محاولة منه للتدخل في تغيير قضاء الله وقدره أو معاندة نصره أمر مستحيل.

ثانيا: إبراز حتمية انتصار الحق وأن كيد المعاندين لا يجدي نفعا.

(١) سورة:(الأنعام)، من الآية:(٣٥)، وقد سبق دراستها في المبحث (الثاني).

(٢) مفاتيح الغيب (٢١١/٢٣).

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن الآية وإن كانت تحمل تعليقا بالمحال وفق كلام بعض المفسرين، إلا أن هناك البعض منهم يرى أن الأمر في هذه الآية ليس على وجه الحتم والإلزام، وأن الآية تحمل تعبيرا مجازيا للتأكيد على عبثية ظن من يعتقد أن الله لن ينصر دينه ورسوله، قال البغوي:«وليس هذا على سبيل الحتم أن يفعله؛ لأنه لا يمكنه القطع والنظر بعد الاختناق والموت، ولكنه كما يقال للحاسد:«إن لم ترض هذا فاختنِق ومُت غيظا»»(١)، وقال أبو حيان:«وهذا على جهة المثل السائر قولهم: «دونك الحبل فاختنِق»، يقال ذلك للذي يريد من الأمر ما لا يمكنه»(٢).

الموضع السادس

قال تعالى:﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾(٣).

تشير الآية الكريمة إلى أن من يدع مع الله إلها آخر في عبادته أو أقواله أو أفعاله ولا دليل له على هذه العبادة ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ﴾أي: من يفعل ذلك سيلقى جزاء عمله السيئ عند ربه يوم القيامة(٤).

موضع التعليق بالمحال في الآية الكريمة:

يظهر وجه التعليق بالمحال هنا عند قوله ﷻ:﴿ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾، وبيانه: أنه إذا كانت عبادة غير الله أمرا باطلا في ذاته، فإن وجود برهان عليها ممتنَع عقلا وشرعا؛ لأن البرهان العقلي والشرعي يثبتان وحدانية الله ﷻوينفيان وجود أي إله آخر يستحق العبادة، وهذا من باب تعليق الشيء بشرط محال، كأن الآية تقول:(لو كان للشرك برهان لكان صحيحا ولكم أن تدعوا مع الله إلها

(١) معالم التنزيل في تفسير القرآن (٣/٣٢٧).
(٢) البحر المحيط في التفسير (٧/٤٩٢).
(٣) سورة:(المؤمنون)، الآية:(١١٧).
(٤) يراجع: التفسير الوسيط، د/ محمد سيد طنطاوي (١٠/٦٩).

آخر، ولكن هذا محال؛ لأن الشرك لا يمكن أن يكون له برهان أصلا).

هذا ولم أقف على كلام لأحد من المفسرين نص صراحة على وجه التعليق بالمحال هنا لكني استنبطتُ هذا الوجه من خلال تفسيرهم لهذه الآية، ومن أبرز المفسرين الذين أشاروا إلى هذا الوجه: الإمام الخازن، قال عند تفسيره لهذه الآية:«﴿ لَا بُرْهَانَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾ يعني: لا حجة ولا بينة له به؛ إذ لا يمكن إقامة برهان ولا دليل على إلهية غير الله ولا حجة في دعوى الشرك»[1].

ففي هذا النص إشارة إلى أن من يعبد مع الله إلها آخر دون أن يكون لديه دليل أو برهان صحيح على صحة هذا العبادة فقد ادعى باطلا؛ لاستحالة إقامة دليل على إلهية غير الله وامتناع ذلك عقلا وشرعا.

وتتجلى بلاغة التعليق بالمحال في قوله:﴿ لَا بُرْهَانَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾ في بيان أن هذه الجملة ليس لها مفهوم مخالفة لفساد المعنى، إذ المعنى يكون: أن إلها سوى الله تعالى يمكن أن يكون به برهان، وهذا فاسد؛ لأن الباطل لا برهان به، ولأن كل عابد لغير الله لا دليل له على صحة عبادته إطلاقا، لذا فإن هذه الجملة الكريمة قد جئ بها هنا لإقرار الواقع وتأكيده، لا للاحتراز من أن يكون ثَمَّ إله آخر مدعوًّا من دون الله له برهان، ونظيرها قوله تعالى:﴿ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾[2]، فلا يُفهَم منها أن ثَمَّ طائرا يطير بغير جناحيه[3]، وفي هذا المعنى يقول الإمام ابن عاشور: «فقوله:﴿ لَا بُرْهَانَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾ حال من ﴿ يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾، وهي حال لازمة؛ لأن دعوى الإله مع الله لا تكون إلا عَرِيَّة عن البرهان»[4].

(١) لباب التأويل في معاني التنزيل (٢٧٨/٣).

(٢) سورة:(الأنعام)، من الآية:(٣٨).

(٣) الدر المصون (٣٧٥/٨)، والتفسير الوسيط، د/ محمد سيد طنطاوي (٦٩/١٠).

(٤) التحرير والتنوير (١٣٦/١٨).

الموضع السابع

قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾(١).

وردت هذه الآية في سياق التحذير من الشرك وبيان خطورته حتى للأنبياء، حيث أكدت أن الوحي الإلهي قد نزل على النبي ﷺوعلى الأنبياء من قبله محذرا إياهم من الشرك وعواقبه الوخيمة.

موضع التعليق بالمحال في الآية الكريمة:

يظهر وجه التعليق بالمحال هنا عند قوله ﷻ:﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾، وبيانه: أن في هذه الجملة ربطا لـ﴿إن ﴾ الشرطية بفعل مستحيل وقوعه وهو (الشرك)، وبما أن الخطاب هنا موجه إلى النبي ﷺوهو معصوم من الوقوع في الشرك، لذلك فإن تعليق الجزاء (إحباط العمل والخسران) على فعل محال يكون مستحيلا في حقهﷺ.

فتعليق الأمر بالمحال هنا ومجئ التحذير من الشرك بصيغة الشرط؛ لإظهار عِظَم وخطورة الشرك حتى لو وقع من أعظم الناس شأنا، وإذا كان الخطاب في هذه الآية موجها إلى النبي ﷺبتحذيره من الشرك مع عصمته منه فغيره من الناس أوْلى بالتحذير، فالأنبياء الكرام لو فُرِضَ وقوع الشرك منهم لحبِطت أعمالهم، فكيف بغيرهم؟

هذا وممن أشار إلى وجه التعليق بالمحال هنا الإمام الزمخشري، فعند تفسيره لها عرض سؤالا مفاده:«فإن قلت: كيف صح هذا الكلام مع علم الله تعالى أن رسله لا يشركون ولا تُحبَط أعمالهم؟ قلت: هو على سبيل الفرض، والمحالات يصح فرضُها لأغراض، فكيف بما ليس بمحال»(٢).

فالإمام الزمخشري يبين أن هذا الكلام قد طُرِحَ في الآية على سبيل

---

(١) سورة:(الزمر)، الآية:(٦٥).

(٢) تفسير الكشاف (١٤٢/٤).

الفرضية وليس على سبيل الوقوع الفعلي؛ لعلم الله يقينا أن رسله محال صدور الشرك منهم، لكن الأمور المستحيلة عقلا وعادة يصح فرضُها لأهداف معينة، ومنها في هذه الآية: التنبيه على خطورة الشرك وتحذير المخاطَبين منه، وإذا كان المحال يجوز فرضه لغرض معين فمن باب أوْلى يجوز فرض ما هو غير مستحيل، أي: لو فُرِضَ صدور الشرك من الأنبياء وحبِطت به أعمالهم مع أنه غير ممكن، فمن باب أوْلى أن يحبط عمل غيرهم إذا وقعوا في الشرك.

وتتجلى بلاغة التعليق بالمحال في هذه الآية فيما يلي:

أولا: أن الخطاب في هذه الآية خطاب بصريح العبارة للرسول ﷺ، وهو تعريض لكل من آمن به واتبعه أن يحذروا من الشرك، وهذا التعريض أبلغ من مواجهة غير الرسول بصريح الخطاب؛ لأن الرسول إذا كان لا يملك لنفسه عند ربه الحماية من أن يحبط عمله ويكون من الخاسرين إذا أشرك، فكيف يكون حال سائر الناس ليس لهم عند ربهم مثل ذلك؟[1].

ثانيا: أن جملة قوله:﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ قضية شرطية لا تستلزم الوقوع، وإسناد الشرك في الحقيقة إلى النبي ﷺ مع أنه معصوم على سبيل الفرض؛ لأن الشرك منه ﷺ مقطوع بعدم حصوله، فنزل منزلة المشكوك فيه، فكان المقام مقام (إن تُشرِك)[2].

الموضع الثامن

قال تعالى:﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾[3].

لما بين رب العالمين في بداية السورة الكريمة أن المشركين نسبوا إليه الولد وادعوا أن الملائكة بنات الله كما في قوله تعالى:﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ

(١) البلاغة العربية (٢/١٥٥) بتلخيص.

(٢) حاشية الدسوقي على مختصر المعاني (٢/٨٥-٨٦) بتصرف وتلخيص.

(٣) سورة:(الزخرف)، الآية:(٨١).

ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾[١]، نـزه ﷻ ذاتـه عـن هـذه الادعـاءات الباطلـة، وذم القـائلين بـذلك موضـحا لهـم أن هـذه النسـبة تتنـاقض مـع جلالـه وكمالـه، فلقن رسوله ﷺ الحجة التي يجابههم بها كما بينت الآية الكريمة[٢].

هذا وقد اختلف المفسرون في معنى ﴿إن﴾ في هذه الآية على قولين:

القول الأول: يرى أن ﴿إِن﴾ هنا (شرطية)، وأن الكلام مسوق على سبيل الفرض والتقدير، وعليه ففي قوله تعالى:﴿ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ عدة تأويلات لعل أقربها إلى الصواب أن يكون المراد بـه:(تعظيم الولد)[٣] أي: لو فُرِضَ للرحمن ولد فأنا أول من يعظِّمه ويسبقكم إلى طاعته لأنه ابن الله، لكن هذا الفرض قد ثبتت استحالته يقينا لا شك معه أنه لا ولد لله، فما أدى إليه وما ترتب عليه من نسبة الولد إليه وعبادته أمر محال أيضا.

وقد اختار هذا المعنى الإمام ابن جزي حيث قال بعد عرضه لعدة أقوال في تفسير الآية:«والأول هو الصحيح -أي: القول بتعظيم الولد- لأنه طريقة معروفة في البراهين والأدلة، وهو الذي عول عليه الزمخشري»[٤].

كما أن سياق الآية يؤيد هذا المعنى، حيث إنه يتعلق بالرد على افتراءات المشركين حول نسبة الولد لله ونفي أن يكون له ولد على أبلغ وجه وأتم عبارة وأحسن أسلوب، وهذا هو الظاهر من النظم القرآني كما قال الإمام الشوكاني[٥]، ولذلك قال سبحانه في الآية التالية منزها ذاته عن اتخاذ الولد:

---

(١) سورة:(الزخرف)، من الآية:(١٩).

(٢) قال الإمام الزمخشري في سبب نزول هذه الآية:«روي أن النضر بن عبد الدار بن قصي قال:«إن الملائكة بنات الله»، فنزلت -أي: هذه الآية- فقال النضر:«ألا ترون أنه قد صَدَّقَنِي»، فقال له الوليد بن المغيرة:«ما صَدَّقَك، ولكن قال:«ما كان للرحمن ولد فأنا أول الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له»». الكشاف (٤/٢٦٦)

(٣) يراجع: غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦/٩٩)، وإرشاد العقل السليم (٨/٥٦).

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل (٢/٢٦٤).

(٥) فتح القدير (٤/٦٤٨).

﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[1].

<u>القول الثاني</u>: يرى أن ﴿إن﴾ هنا (نافية) بمعنى (ما)، أي: ما كان للرحمن ولد وما صح وما ينبغي له؛ لأنه مستحيل عقلا وشرعا، وما دام الأمر كذلك، فأنا أول من عبد الله على يقين أنه لا ولد له[2].

الراجح/ من خلال ما سبق يتبين أن الرأيين يؤديان إلى نفي أن يكون لله ولد، وإن كان الرأي (الأول) القائل بأن﴿إن﴾ هنا (شرطية) هو المتبادر من معنى الآية وعليه جمهور المفسرين[3]، قال مكي بن أبي طالب:«إذا جعلتَ ﴿إن﴾بمعنى (ما) أوهمتَ أنك إنما نفيتَ عن الله سبحانه الولد فيما مضى دون ما هو آت»[4].

موضع التعليق بالمحال في الآية الكريمة وبيانه:

بناء على ترجيح الرأي القائل بأن ﴿إن﴾ هنا (شرطية)، وأن المعنى المراد من الآية محمول–على سبيل الفرض والتقدير– يتجلى أسلوب التعليق بالمحال في الآية كلها، وبيانه: أن الآية قد علقت إثبات العبادة على شرط محال –وهو إثبات الولد لله ﷻ– وهذا أمر مستحيل التحقق عقلا وشرعا، فالآية الكريمة بذلك تؤكد نفي الولد عن الله بأسلوب مشروط مستحيل التحقق، وبالتالي استحالة عبادته وتعظيمه.

هذا وقد نص بعض المفسرين على وجه التعليق بالمحال هنا منهم:

١) <u>الإمام الزمخشري</u>: قال عند تفسيره لهذه الآية: قل إن كان للرحمن ولد وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح توردونه وحجة واضحة تُدْلون بها، فأنا أول من يعظِّم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له، وهذا كلام وارد

(١) سورة:(الزخرف)، الآية:(٨٢).
(٢) زاد المسير (٨٥/٤)، والجامع لأحكام القرآن (١١٩/١٦) بتصرف.
(٣) يراجع: تفسير أنوار التنزيل (٩٧/٥)، وتفسير القرآن العظيم (٢٤٣/٧).
(٤) الهداية إلى بلوغ النهاية (٦٧٠٩/١٠).

على سبيل الفرض والتمثيل لغرض –وهو المبالغة في نفي الولد والإطناب فيه– وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد وهي محال في نفسها، فكان المعلَّق بها محالا مثلها[(١)].

٢) الإمام ابن جزي: عند تفسيره لهذه الآية ذكر عدة أقوال وصدرها بالقول الذي نص فيه على التعليق بالمحال فقال:«الأول: أنها احتجاج ورد على الكفار على تقدير قولهم، ومعناها: لو كان للرحمن ولد كما يقول الكفار لكنتُ أنا أول من يعبد ذلك الولد، كما يعظم خدم الملك ولد الملك لتعظيم والده، ولكن ليس للرحمن ولد، فلستُ بعابد إلا الله وحده، وهذا نوع من الأدلة يسمى دليل التلازم[(٢)]؛ لأنه علق عبادة الولد بوجوده، ووجوده محال، فعبادته محال»[(٣)].

وتتجلى بلاغة التعليق بالمحال في هذه الآية فيما يلي:

أولا: بيان موقف النبي ﷺ في رفضه لهذه العقيدة الفاسدة، وأن إنكاره للولد ليس ناشئا عن تعصب أو عناد في إنكار ما يدَّعونه، وإنما ينكر ذلك بناء على علم ودليل ويقين، قال الإمام الرازي بعد ذكره لمعنى الآية:«المقصود من هذا الكلام : بيان أني لا أنكر ولده لأجل العناد والمنازعة، فإن بتقدير أن يقوم الدليل على ثبوت هذا الولد كنتُ مقرا به معترفا بوجوب خدمته، إلا أنه لم يوجد هذا الولد ولم يقم الدليل على ثبوته البتة، فكيف أقول به؟ بل الدليل

(١) تفسير الكشاف (٤/٢٦٥-٢٦٦) بتلخيص.

(٢) التلازم لغة: من(لَزِمتُ الشيءَ ألزمه لزوما) أي: ثبت ودام. الصحاح تاج اللغة (٥/٢٠٢٩)، مادة:(لَزَمَ) واصطلاحا: كون أحد الأمرين مقتضيا للآخر في الحكم ، بحيث لو رُفِعَ أحدهما لارتفع الآخر، ويسمى الأول (الملزوم)، والثاني (اللازم). معجم مصطلحات أصول الفقه (ص: ١٤٥) وبيان ذلك في الآية الكريمة أن قوله:﴿ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ ﴾ ملزوم، وقوله:﴿ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ لازم، وهو باطل لأنه خلاف الواقع، فبطل أيضا الملزوم، فتكون النتيجة:(لا يكون للرحمن ﷻ ولد).

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل (٢/٢٦٤).

القاطع قائم على عدمه، فكيف أقول به وكيف أعترف بوجوده؟!»[1].

ثانيا: أنه بدلا من المواجهة المباشرة استخدمت الآية أسلوبا منطقيا هادئا مقنعا يعتمد على التعليق بشرط محال، وهذا مما يعمق نفي الولد عن الله ويؤكد تنزيهه، ويجعل المشركين يفكرون في تهافت عقيدتهم بأنفسهم، قال الإمام أبو السعود:«وفيه من الدلالة على انتفاء كونهم كذلك على أبلغ الوجوه وأقواها، وعلى كون رسول الله ﷺ على قوة يقين وثبات قدم في باب التوحيد ما لا يخفى، مع ما فيه من استنزال الكفرة عن رتبة المكابرة حسبما يُعْرِب عنه إيراد ﴿إِن﴾ مكان ﴿لَوْ﴾ المنبئة عن امتناع مقدِّم الشرطية»[2].



المبحث الثالث

تلبُّس التعليق بالمحال بـ«النفي»، وفيه موضعان

الموضع الأول

قال تعالى:﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾[3].

تناولت الآية الكريمة الحديث عن نبي الله هود عليه السلام، وأنه أنذر قومه وهددهم بوقوع العذاب عليهم بسبب إصرارهم على كفرهم وعبادتهم للأصنام التي لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا، مبينا لهم أن الله تعالى ما نزل بها من حجة أو دليل يؤيد زعمهم في ألوهيتها وعبادتها أو في كونها تشفع لهم عند الله تعالى.

موضع التعليق بالمحال في الآية الكريمة:

يتجلى أسلوب التعليق بالمحال هنا عند قوله تعالى:﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن

---

(١) مفاتيح الغيب (٦٤٦/٢٧).

(٢) إرشاد العقل السليم (٥٦/٨).

(٣) سورة:(الأعراف)، من الآية:(٧١).

سُلۡطَٰنٍ﴾، وبيانه: أن الله ﷻ ينكر أن يكون قد أنزل حجة أو دليلا لتبرير تلك المعتقدات الباطلة، وحيث إنه سبحانه قد نفى أن يكون قد نزَّل دليلا وبرهانا على صحة عبادة هذه الأصنام، إذن فمحال أن يصْدُق عليها وصف الآلهة وأن تُعبَدَ من دون الله الواحد القهار؛ لأنها لو كانت صحيحة لأنزل الله فيها من الحجج ما يدل عليها، ومن السلطان ما لا تخفى معه، فعدم إنزاله له دليل على بطلانها، إذ من المحال أن ينزل الله حججا تدعم الشرك وتؤيده.

وقد أشار عدد من المفسرين إلى التعليق بالمحال في هذه الآية ضمنا بالمعنى السابق أو قريب منه، وحاصل كلامهم: أن المراد بالاستفهام في قوله:﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي﴾الإنكار عليهم؛ لأنهم كانوا يسمون الأصنام بالآلهة مع أن معنى الإلهية فيها معدوم بالكلية محال وجوده، فكيف يتخذونها آلهة؟! ولذلك قال سبحانه:﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾أي: ما جعل الله لهم في عبادتها حجة ولا دليلا، فالجملة الكريمة عبارة عن خلو مذاهبهم عن الحجة والبينة على هذه التسمية، وأنها ما هي إلا أسماء أحدثوها لآلهتهم من عند أنفسهم بغير دليل(١).

بينما أشار الإمام الشهاب إلى التعليق بالمحال في هذه الآية نصا فقال:«قوله:﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾أي: حجة ودليل، فهو تعليق بالمحال، وإليه يشير قوله:«أنها لو استحقت»(٢) أي: استحقت العبادة»(٣).

(١) يراجع: تفسير الكشاف (١١٨/٢)، ومفاتيح الغيب (٣٠٣/١٤) بتصرف.

(٢) يشير بذلك إلى قول الإمام البيضاوي:«أنها لو استحقت –أي: الآلهة– كان استحقاقها بجعله تعالى إما بإنزال آية أو بنصب حجة، بيَّن أن منتهى حجتهم وسندهم أن الأصنام تسمى آلهة». أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١٩/٣)

(٣) حاشية الشهاب (١٨٢/٤).

الموضع الثاني

قال تعالى:﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦ ﴾(١).

يتجلى أسلوب التعليق بالمحال في آيات هذه السورة في أن الله ﷻ يشير على لسان نبيه ﷺ إلى رفضه التام لعبادة المشركين وأصنامهم، والتأكيد على استحالة التوافق في العبادة بين المؤمنين والمشركين، وإذا كان الأمر كذلك، فمحال أن يكون هناك خلط أو تقارب بين العبادتين.

وفي هذا المعنى يقول الإمام ابن عاشور:«وبهذا يُعلَم الغرض الذي اشتملت عليه، وأنه تأييسهم من أن يوافقهم في شيء مما هم عليه من الكفر بالقول الفصل المؤكَّد في الحال والاستقبال، وأن دين الإسلام لا يخالط شيئا من دين الشرك»(٢).

ومما يؤكد هذا المعنى قوله تعالى في ختام السورة الكريمة:﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾، فقد وردت هذه الآية في سياق إعلان النبي ﷺ براءته من عقائد الكفار ودعوتهم إلى ترك ما هم عليه من الشرك، فكأنه ﷺ يخاطبهم ويقرهم بأن لهم دينهم وله دينه.

وممن نص على وجه التعليق بالمحال في آيات هذه السورة الإمام أبو السعود، فقد قال:«المعنى: أن دينكم الذي هو الإشراك مقصور على الحصول لكم لا يتجاوزه إلى الحصول لي أيضا كما تطمعون فيه، فلا تُعَلِّقوا به أمانيكم الفارغة فإن ذلك من المحالات، وأن ديني الذي هو التوحيد مقصور على الحصول لي لا يتجاوزه إلى الحصول لكم أيضا لأنكم علَّقتموه بالمحال الذي هو عبادتي لآلهتكم أو استلامي إياها»(٣).



---

(١) سورة:(الكافرون)، الآيات:(١-٦).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/٥٨٠).

(٣) إرشاد العقل السليم (٩/٢٠٦).

المبحث الرابع

تلبُّس التعليق بالمحال بـ«حتى»، وفيه موضع واحد

قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾(١).

تناولت هذه الآية الحديث عن لون آخر من ألوان عذاب المكذبين، وصورت أكمل تصوير استحالة دخولهم الجنة بسبب تكذيبهم لآيات الله واستكبارهم عنها.

ويتجلى أسلوب التعليق بالمحال في هذه الآية عند قوله تعالى:﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِ ﴾، وبيان ذلك: أن الآية قد حكمت بأن هؤلاء الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها لا يدخلون الجنة أبدا إلا إذا دخل الجمل في سَم الخياط، ودخول الجمل في سَم الخياط أمر محال؛ لأن جسم الجمل من أعظم الأجسام، وثقب الإبرة من أضيق المنافذ، ولما كان ولوج الجمل مع عِظَم جسمه في ثقب الإبرة الضيق محالا، فكذلك دخول هؤلاء الكفار الجنة مستحيل؛ لأن المعلق على المحال محال.

فهنا تناسب بين المعلق والمعلق به(٢) يظهر في أن الآية فيها ملائمة بين ولوجين كلاهما مستحيل، ولوج الجمل في سَم الخياط، وولوج الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها الجنة، والصفة الجامعة المشتركة بينهما هي (العِظَم)، فكما أن جِرْمَ الجمل العظيم هو الذي يحول بينه وبين الولوج في سَم الخياط، فكذلك الجُرْم العظيم والذنب الكبير الذي ارتكبه هؤلاء الكفار قد حال بينهم وبين دخول الجنة.

---

(١) سورة:(الأعراف)، الآية:(٤٠).

(٢) المعلَّق في الآية الكريمة:(الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها)، والمعلَّق به: (ولوج الجمل في سَم الخياط).

ويمكن تقسيم نظرة المفسرين إلى التعليق بالمحال هنا إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من المفسرين من نص على وجه التعليق بالمحال في هذه الآية لكنهم لم يتجاوزوا في تفسير دلالته القول بإفادة تأكيد استحالة دخول هؤلاء الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها الجنة حتى يلج الجمل في سَم الخياط، ومن هؤلاء:(ابن عطية، والرازي)، وغيرهما.

فالإمام ابن عطية يقول في تفسيرها:«نفى الله ﷻ عنهم دخول الجنة، وعلق كونه بكون محال لا يكون، وهو أن يدخل الجمل في ثقب الإبرة حيث يدخل الخيط»[1].

وأما الإمام الرازي فقد قال:«جسم الجمل أعظم الأجسام، وثقب الإبرة أضيق المنافذ، فكان ولوج الجمل في تلك الثقبة الضيقة محالا، فلما وقَّف الله تعالى دخولهم الجنة على حصول هذا الشرط وكان هذا شرطا محالا، وثبت في العقول أن الموقوف على المحال محال، وجب أن يكون دخولهم الجنة مأيوسا منه قطعا»[2].

القسم الثاني: من المفسرين من نبه على وجه التعليق بالمحال هنا مبينين فائدته ودلالته، لكنهم لم يصرحوا بهذا الأسلوب، وحاصل كلامهم: أن هؤلاء الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها لا يدخلون الجنة أبدا حتى يدخل ما هو مَثَل في عِظَم الجِرْم وهو البعير فيما هو مَثَل في ضيق المسلك وهو ثقب الإبرة، وذلك مما لا يكون أبدا، فكذا ما يتوقف عليه؛ لأن الشيء إذا عُلِّق بما يستحيل كونه دل ذلك على تأكيد المنع[3]، قال الإمام الماتريدي في معنى الآية:«هذا على الإياس أنهم لا يدخلون أبدا الجنة كما لا يدخل ما ذُكِر في سَم الخياط، فإنه لا يدخل أبدا»[4].

---

(١) المحرر الوجيز (٢/٤٠٠).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤/٢٤٠).

(٣) يراجع: جامع البيان (١٢/٤٢٧)، وتفسير البغوي (٢/١٩١).

(٤) تأويلات أهل السنة (٤/٤٢٢).

القسم الثالث: من المفسرين مَن حمل الآية الكريمة على هذا الأسلوب ضمنا لكنهم لم يصرحوا به أيضا، بل قاسوه على ما ورد عن العرب من أمثلة تفيد معنى الاستبعاد، ومن ذلك استدلالهم بقول الشاعر:

«إذا شاب الغراب أتيتُ أهلي ... وصار القار كاللبن الحليب»(١)

ومن المفسرين الذين أشاروا إلى ذلك: الإمام الآلوسي فقد قاس وجه التعليق بالمحال في الجملة الكريمة على بعض الأقوال المأثورة عن العرب فقال: «والعرب تضرب به المَثَل في عِظَم الخِلْقَة، فكأنه قيل: حتى يدخل ما هو مَثَل في عِظَم الجِرْم في سَم الخياط -أي: ثُقبة الإبرة- وهو مَثَل عندهم أيضا في ضِيق المسلك، وذلك مما لا يكون، فكذا ما توقف عليه، وقد كثر في كلامهم مِثْل هذه الغاية فيقولون: لا أفعل كذا حتى يَشِيبَ الغراب، وحتى يَبْيَضَّ القار، ومرادهم: لا أفعل كذا أبدا»(٢).

وتتجلى بلاغة التعليق بالمحال في هذه الآية في المبالغة في انتفاء حصول الأمر المعلق واستحالة وقوعه لتعليقه على أمر محال حدوثه، قال الإمام أبو السعود:«وفي كون الجمل مما ليس من شأنه الوَلَج في سَم الإبرة مبالغة في الاستبعاد»(٣) أي: في استبعاد دخولهم الجنة.

ومما يجدر ذكره في هذا المقام اختلاف أهل العلم في المراد بـ﴿ٱلۡجَمَلُ﴾ في قوله تعالى:﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِ﴾، وهو اختلاف منبعه تَغَير قراءات ذلك اللفظ القرآني، فمنهم من قال: إن المراد بالجمل:(الحبل الغليظ)، ومنهم من قال: إن المراد به:(الحيوان المعروف)(٤)، وقد رجح الزمخشري المعنى

---

(١) الشاهد في النكت والعيون (٢٢٣/٢)، والدر المصون (٣٢٠/٥) بلا نسبة، وعزاه محقق حاشية وضَح البرهان في مشكِلات القرآن للغزنوي (٧٣/٢) للقارظ العنزي، ونسبه أيضا لتميم الداري، لكني لم أقف على قائله بعد بحث.

(٢) روح المعاني (٣٥٨/٤) بتلخيص.

(٣) إرشاد العقل السليم (٢٢٧/٣).

(٤) تعددت القراءات الواردة في كلمة ﴿ٱلۡجَمَلُ﴾، قرأ الجمهور:(الجَمَل) -بفتح الجيم والميم- أي: =

الأخير مستدلا على ذلك بـ«أن سَم الإبرة مَثَل في ضِيق المسلك، والجمل مَثَل في عظم الجِرْم»[1] ، ومما يؤكد ما ذهب إليه الإمام الزمخشري من أن المراد بالجمل هنا: (الحيوان المعروف) أن هناك تناسبا بين دلالة وصف هؤلاء الكافرين بصفة (الاستكبار) وبين (عِظَم جسم الجمل وضخامته)، وبيان ذلك كما قال الإمام الراغب:«الكِبْر والتكبر والاستكبار تتقارب، فالكِبْر: الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسانُ نفسَه أكبر من غيره، وأعظم التكبر: التكبر على الله بالامتناع من قبول الحق والإذعان له بالعبادة، ومن وجوه الاستكبار: أن يتشبع الإنسانُ فيُظهِرَ من نفسه ما ليس له، وهذا هو المذموم، وعلى هذا ما ورد في القرآن من نحو قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾[2]»[3].

فهؤلاء الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها قد تشبعت نفوسهم بما ليس فيهم حتى رأوها أعظم من غيرهم، وأمعنوا في ذلك حتى رأوها أكبر من أن تُذعِن لآيات الله الداعية إلى الحق والإيمان، وهذا وإن كان كِبَرا معنويا فإنه لا ريب يتناسب مع الكِبَر المادي المتمثل في عِظَم جسم الجمل وضخامته[4]،

=

الجمل المعروف، وهو ما ذهب إليه أكثر المفسرين.

- قرأ ابن عباس وابن محيصن وغيرهما:(الجُمَّل)-بضم الجيم وتشديد الميم مفتوحة-.

- قرأ سعيد بن جبير وأبو السمال:(الجَمْل) -بفتح الجيم وسكون الميم-.

قال أبو الفتح ابن جني:«أما (الجُمَّل)-بالتثقيل- و(الجَمْل)-بالتخفيف- فكلاهما الحبل الغليظ». يراجع: المحتسب (٢٤٩/١)، والدر المصون (٣٢٠/٥)

قلت: سواء فُسِّر الجمل في الآية بـ(الحيوان المعروف) أو بـ(الحبل الغليظ) فدخولهما في ثقب الإبرة محال.

(٢) تفسير الكشاف (١٠٣/٢).

(٢) سورة:(البقرة)، من الآية:(٣٤).

(٣) المفردات في غريب القرآن (ص: ٦٩٧) بتصرف وتلخيص.

(٤) التعليق بالمحال في البيان النبوي (ص: ١٢١٧) بتصرف.

ولذلك حكمت الآية الكريمة عليهم بأنهم لن ينالوا القبول عند الله ويستحيل عليهم دخول الجنة، فصدر هذا الحكم من الله عليهم مناسب لجُرْمهم الذي ارتكبوه، وإثمهم العظيم الذي فعلوه.

وهذا المعنى الذهني الذي قررته الآية وضحتْه لنا في صورة أسلوب تصويري ليرسم الإنسان بخياله صورة الجمل الذي يحول جِرْمُه العظيم بينه وبين الولوج في سَم الخياط، وإذا توصل الإنسان من خلال هذا الأسلوب التصويري إلى أن هؤلاء الكفار قد حال ذنبهم العظيم المتمثل في صفتي (التكذيب والاستكبار) بينهم وبين دخول الجنة استقر هذا المعنى في أعماق النفس وتمكن منها أيما تمكُّن.



المبحث الخامس

تلبُّس التعليق بالمحال بـ«لعل»، وفيه موضع واحد

قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ . لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾(١).

موضع التعليق بالمحال في هاتين الآيتين:

تناولت الآيتان الحديث عن حال الكافرين عندما ينزل بهم الموت، وكيف أنهم يلتمسون العودة لكنهم لا يجابون إلى طلبهم، ويتجلى أسلوب التعليق بالمحال هنا عند قوله تعالى حكاية عن الكافر: ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ . لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾، وبيان ذلك: أن هؤلاء الكافرين لو فُرِضَ بأنهم سيُسمَع كلامهم ويجابون إلى طلبهم ويعودون إلى الدنيا ليعملوا صالحا فإنهم سيعودون، لكن طلبهم هذا طلب للأمر المحال الذي لا يمكن تحققه، ومما يؤكد نفي عودتهم واستحالة رجوعهم أن الكافر لما تمنى الرجعة قيل له ردعا وردًّا لكلامه: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ أي: قوله: ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾ الخ لا يتجاوز أن

(١) سورة:(المؤمنون)، الآيتان:(٩٩-١٠٠).

يكون كلاما صدر من لسانه لا جدوى له فيه، ولا يستجاب طلبه به، فـ﴿كَلَّآ﴾ هنا ردع عن طلب الرجعة واستبعاد لها(١).

وعلى هذا المعنى يكون في الجملة الكريمة زجر شديد لهم عن طلب العودة إلى الدنيا، وتيئيس وإقناط لهم من التفكير في المطالبة بالرجعة، ولو فُرِضَ جدلا أن الكافر أجيب إلى طلبه لما وفَّى بما يقول ولكان كاذبا في مقالته هذه، كما قال تعالى عنهم:﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾(٢).

وممن أشار إلى التعليق بالمحال في هذه الآية نصا الإمام:(الطيبي، والشهاب الخفاجي)، أما الإمام الطيبي فقد علق على تفسير الزمخشري لهذه الآية بقوله:«قوله:﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ أي: لا يُجاب إليها ولا يُسمَع منه فلا رجوع؛ لأن ذلك أمر قد حيل بينه وبينه، أي: أن أمامه حائل بينه وبين الرجعة إلى يوم القيامة، وإذا كان أمامه هذا الحائل فأين الرجوع؟ وهو المراد من قوله:«وإنما هو إقناط كلي»(٣)، ونحوه في التقييد بالمحال للمبالغة قوله تعالى:﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾»(٤).

وأما الإمام الشهاب فقد قاس هذا الأسلوب على قوله تعالى:﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾(٥)، وعلى بعض الأقوال المأثورة عن العرب فقال معلقا على قول البيضاوي:«وهو إقناط كلي» الخ(٦):«ليس مراده أن الغاية داخلة في المُغَيَّا لأنه خلاف الاستعمال، وإنما المراد: أنه علق رجعتهم بالمحال كما في قوله:﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾، وحتى يَشِيبَ الغراب»(٧).

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٩٥/٤)، والتحرير والتنوير (١٢٣/١٨).
(٢) سورة:(الأنعام)، من الآية:(٢٨).
(٣) تفسير الكشاف (٢٠٣/٣).
(٤) حاشية الطيبي على تفسير الكشاف (٦٢٨/١٠).
(٥) سورة:(الأعراف)، من الآية:(٤٠).
(٦) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٩٥/٤).
(٧) حاشية الشهاب (٣٤٥/٦-٣٤٦) بتلخيص.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير البريات، وبعد:

فإن من أعظم ما تُشغَل به الأوقات، وأنفس ما تُنفَق فيه القربات، وأسمى ما ترجوه الغايات، خدمة كتاب الله ﷻوفهم أسراره والكشف عن أساليبه، وبعد معايشة كريمة مع هذا البحث الذي بذلتُ فيه قصارى جهدي، يحسن بي أن أختمه بأهم النتائج والمقترحات على النحو التالي:

- **أهم النتائج التي توصلتُ إليها:**

أولا: التعليق بالمحال من الأساليب العربية البديعة في الخطاب والمبثوثة في البيان كله على اختلاف صنوفه، فقد ورد في كلام العرب شعرا ونثرا، وفي كلام الصحابة وأمهات المؤمنين، وتواترت به سنة النبي ﷺالصادق الأمين، وكثر مجيئه كذلك في آيات الذكر الحكيم، لكن لم يصِلْنا مؤلَّف مستقل تناول الحديث عن هذا الأسلوب الفريد بالتفصيل.

ثانيا: التعليق بالمحال أحد مظاهر الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، يؤتى به في الكلام إذا أراد المتكلم المبالغة في نفي حصول شيء ما، إذ يعلَّق حصوله على أمر مستحيل التحقق، وتتمثل قيمته البلاغية أينما ورد وحيثما أتى في إفادته النفي والتأكيد والمبالغة.

ثالثا: بالرجوع إلى كتب اللغة والبلاغة والتفسير وغيرها لم أقف على تعريف اصطلاحي لأسلوب «التعليق بالمحال»، بل غاية ما وجدته أن علماءنا كانوا يشيرون إشارات يسيرة إلى بعض المعاني والدلالات التي يفيدها هذا الأسلوب دون تفصيل القول في تعريفه وصوره ومواقعه، لذا فقد اجتهد الباحث من خلال تعريف طرفي هذا المصطلح إلى التأصيل له بأنه:«تعليق أمر على مستحيل إشارة إلى استحالة وقوعه»، أو:«ربط حصول مضمون جملة بشيء يمتنع وجوده في الخارج».

رابعا: التعليق بالمحال مقرون في التراث البلاغي بأحد فنون علم البديع وهو «تأكيد المدح بما يشبه الذم»، ويُعَد ابن رشيق القيرواني

(ت: ٤٦٣هـ) أول من ألمح إلى بناء هذا الفن على التعليق بالمحال.

خامسا: التعليق بالمحال أسلوب من أساليب التعبير القرآني، وقد ورد فيه على صور متعددة، فقد تلبَّس في اثني عشر موضعا بـ(النفي والاستثناء)، وفي ثمانية مواضع بـ(الشرط)، وفي موضعين بـ(النفي)، وتلبس بـ(حتى)، و(لعل) في موضع واحد لكل منهما، وقد بسطَت الدراسة القول في كل صورة من صوره، ونظرَت في كل شاهد من شواهده، مع بيان موقعه من سياقه والتناسب بين المعلَّق والمعلَّق به.

سادسا: أول من ألمح وأشار إلى هذا الأسلوب في كلامه من المفسرين الإمام أبو منصور الماتريدي (ت: ٣٣٣هـ) عند تفسيره لقوله تعالى:﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِ ﴾، وأحسِب أن أول من سماه:«التعليق بالمحال» من بين المفسرين الإمام الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)، فقد صرح بهذا الأسلوب عند تفسيره لقوله تعالى:﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰ ﴾، ثم تبعه جمع من المفسرين.

سابعا: هناك آيات نص المفسرون على التعليق بالمحال فيها صراحة، وهناك مواضع أخرى قاس المفسرون التعليق بالمحال فيها على أسلوب «تأكيد المدح بما يشبه الذم»، وهناك مواضع أخرى لم ينص المفسرون فيها على التعليق بالمحال صراحة ولم يقيسوه على غيره، بل يمكن استنباط هذا الأسلوب من خلال تفسيرهم للآية الكريمة، وهناك مواضع أخرى حكى بعض المفسرين أن فيها تعليقا بالمحال لكن بالنظر والتدبر تبين لي أنه ليس فيها تعليقا بالمحال، وقد بينتُ ذلك مفصلا في كل موضع مما يغني عن إعادته.

- **المقترحات:**

أولا: العناية بدراسة الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، وذلك بتتبع الأسلوب الواحد وإحصاء صوره وبيان فقه دلالاته.

ثانيا: ضرورة النظر والتدبر في كتاب الله تعالى للوصول إلى دراسات بحثية جديدة في هذا المجال، وإتاحة الفرصة للباحثين للتعمق في مجال

الدراسات القرآنية وبخاصة الجوانب البلاغية منها.

ثالثا: إجراء دراسات موسعة على أسلوب التعليق بالمحال في بقية صنوف البيان لاسيما فيما كثُر مجيئه فيه.

وفي الختام أحمد الله وأشكره أن وفقني لإتمام هذا البحث، فله الحمد والمنة، وهو أهل الحمد والثناء، فلولاه ما كنتُ ولا كان هذا الجهد، وأسأله سبحانه أن يتقبل هذا العمل بقبول حسن، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفع به قارئه وكاتبه والإسلام والمسلمين، إنه سميع قريب مجيب.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.



فهرس المصادر والمراجع

١) **إرشاد العقل السليم**، المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت: ٩٨٢هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢) **أساس البلاغة**، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٣) **أسباب نزول القرآن**، المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي (ت: ٤٦٨هـ)، المحقق: كمال بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ١٤١١ هـ.

٤) **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، المؤلف: أبو الحسن محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ)، المحقق: علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية، ط: الأولى، سنة النشر: ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٥) **الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار**، المؤلف: أبو الحسين يحيى بن أبي الخير بن سالم الشافعي (ت: ٥٥٨هـ)، المحقق: سعود بن عبد العزيز، الناشر: أضواء السلف، الرياض، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

٦) **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٨هـ.

٧) **أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك**، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن يوسف ابن أحمد بن يوسف جمال الدين بن هشام (ت:٧٦١هـ)، المحقق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، الناشر: دار الفكر، بدون تاريخ.

٨) **الإيضاح في علوم البلاغة**، المؤلف: محمد بن عبد الرحمن بن عمر جلال الدين القزويني الشافعي (ت: ٧٣٩هـ)، المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل، بيروت.

٩) **البحث العلمي أساسياته النظرية وممارسته العلمية**، تأليف: د/ رجاء وحيد دويدري، المطبعة: دار الفكر، بيروت، الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

١٠) **البحث العلمي، حقيقته، ومصادره**، تأليف: د/ عبد العزيز بن عبد الرحمن، مكتبة الملك فهد بالرياض، ط: الثانية، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

١١) **البحر المحيط في التفسير**، المؤلف: محمد بن يوسف بن علي بن يوسف ابن حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر، بيروت، ط: ١٤٢٠هـ.

١٢) **البديع في البديع**، المؤلف: أبو العباس عبد الله بن محمد ابن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد العباسي (ت: ٢٩٦هـ)، الناشر: دار الجيل، ط: الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

١٣) **البرهان في علوم القرآن**، المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت: ٧٩٤هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.

١٤) **بغية الإيضاح**، المؤلف: عبد المتعال الصعيدي (ت: ١٣٩١هـ)، الناشر: مكتبة الآداب، ط: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

١٥) **البيان والتبيين**، المؤلف: أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، الشهير بـ(الجاحظ) (ت: ٢٥٥هـ)، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، عام النشر: ١٤٢٣هـ.

١٦) **تاج العروس**، المؤلف: محمد بن محمد بن عبد الرزاق الملقب بـ(مرتضى الزَّبيدي) (ت: ١٢٠٥هـ)، الناشر: دار الهداية.

١٧) **تأكيد المدح والذم بما يشبه ضدهما في القرآن الكريم دراسة تحليلية بلاغية**، إعداد: د/ حسن علي حماد العبيدي، بحث منشور بمجلة جامعة الأنبار للعلوم الإسلامية، المجلد الثالث، العدد العاشر، ٢٠١١م.

١٨) **تأويلات أهل السنة**، المؤلف: محمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدي (ت: ٣٣٣هـ)، المحقق: د/ مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

١٩) **التحرير والتنوير**، المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)، الناشر: الدار التونسية، تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ.

٢٠) **تخليص الشواهد وتلخيص الفوائد**، المؤلف: جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصاري (ت: ٧٦١ هـ)، المحقق: د/ عباس مصطفى، الناشر: دار الكتاب العربي، ط: الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
٢١) **التسهيل لعلوم التنزيل**، المؤلف: محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله ابن جزي الكلبي الغرناطي (ت: ٧٤١هـ)، المحقق: د/ عبد الله الخالدي، الناشر: دار الأرقم، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٦هـ.
٢٢) **التعليق بالمحال في البيان النبوي، مواقعه، صوره، بلاغته**، إعداد: د/ ياسين عطية جمعة، بحث منشور بمجلة بكلية اللغة العربية بإيتاي البارود، العدد السابع والثلاثون، الإصدار الثاني، ١٤٤٥هـ- ٢٠٢٤م.
٢٣) **التفسير البسيط**، المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري الشافعي (ت: ٤٦٨هـ)، الناشر: عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود، ط: الأولى، ١٤٣٠هـ.
٢٤) **تفسير القرآن العظيم**، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة، ط: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.
٢٥) **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، المؤلف: محمد سيد طنطاوي، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، ط: الأولى.
٢٦) **التلخيص في علوم البلاغة**، المؤلف: محمد بن عبد الرحمن بن عمر جلال الدين القزويني الشافعي (ت: ٧٣٩هـ)، ضبط وشرح: عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، ط: الأولى، ١٩٠٤م.
٢٧) **جامع البيان في تأويل القرآن**، المؤلف: أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري (ت: ٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
٢٨) **الجامع لأحكام القرآن**، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي(ت: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية، ط: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

٢٩) **حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني** (ت: ٧٩٢ هـ)، المؤلف: محمد بن عرفة الدسوقي، المحقق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت، بدون تاريخ.

٣٠) **حاشية القونوي**، المؤلف: عصام الدين إسماعيل بن محمد الحنفي (ت: ١١٩٥هـ) الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

٣١) **حاشية عناية القاضي وكفاية الراضي**، المؤلف: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي (ت: ١٠٦٩هـ)، دار النشر: دار صادر، بيروت.

٣٢) **الحيوان**، المؤلف: أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي الشهير بـ(الجاحظ) (ت: ٢٥٥هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الثانية، ١٤٢٤هـ.

٣٣) **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، المؤلف: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بـ(السمين الحلبي) (ت: ٧٥٦هـ)، المحقق: د/ أحمد محمد الخراط، الناشر: دار القلم.

٣٤) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت: ١٢٧٠هـ) المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ.

٣٥) **زاد المسير في علم التفسير**، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن علي بن محمد الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣٦) **السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير**، المؤلف: شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (ت: ٩٧٧هـ)، الناشر: مطبعة بولاق (الأميرية)، القاهرة، ١٢٨٥هـ.

٣٧) **سنن أبي داود**، المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير ابن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني (ت: ٢٧٥هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت.

٣٨) **سنن الترمذي**، المؤلف: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى الترمذي (ت: ٢٧٩هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وغيره، الناشر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط: الثانية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

٣٩) **السنن الكبرى**، المؤلف: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)، المحقق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

٤٠) **شرح الأشموني على ألفية ابن مالك**، المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد ابن عيسى نور الدين الأشموني الشافعي (ت: ٩٠٠هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط: الأولى ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٤١) **شرح الأصول الخمسة**، المؤلف: عبد الجبار بن أحمد، تعليق: أحمد بن الحسين بن أبي هاشم، تحقيق: د/ عبد الكريم عثمان، الناشر: مكتبة وهبة.

٤٢) **شرح العقيدة الطحاوية**، المؤلف: علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي (ت: ٧٩٢هـ)، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط: الثانية، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

٤٣) **شرح الكافية الشافية**، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني، حققه وقدم له: عبد المنعم أحمد هريدي، الناشر: جامعة أم القرى، ط: الأولى، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٤٤) **شرح المقاصد**، المؤلف: مسعود بن عمر بن عبد الله الشهير بـ(سعد الدين التفتازاني) (ت:٧٩٣هـ)، تحقيق وتعليق: د/ عبد الرحمن عميرة، الناشر: عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط: الثانية، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

٤٥) **الصحاح تاج اللغة**، المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم، بيروت، ط: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

٤٦) **صحيح البخاري**، المؤلف: أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، المحقق: محمد زهير بن ناصر، الناشر: دار طوق النجاة ، ١٤٢٢هـ.

٤٧) **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح**، المؤلف: أبو حامد أحمد بن علي بن عبد الكافي السبكي (ت: ٧٧٣ هـ)، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٤٨) **فتح الباري**، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، الناشر: دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

٤٩) **فتح القدير**، المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت: ١٢٥٠هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٤هـ.

٥٠) **فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب**، المؤلف: شرف الدين الحسين ابن عبد الله الطيبي (ت: ٧٤٣ هـ)، الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط: الأولى، ١٤٣٤ هـ، ٢٠١٣ م.

٥١) **الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية**، المؤلف: سليمان الجمل، الناشر: المطبعة العامرية، مصر، ط: الأولى، ١٣٠٣هـ.

٥٢) **الكاشف عن حقائق السنن**، المؤلف: شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (٧٤٣هـ)، المحقق: د/ عبد الحميد هنداوي، الناشر: مكتبة نزار مصطفى، مكة المكرمة، الرياض، ط: الأولى، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

٥٣) **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، المؤلف: العلامة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ.

٥٤) **الكليات**، المؤلف: أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي الحنفي (ت: ١٠٩٤هـ)، المحقق: عدنان درويش، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت.

٥٥) **لباب التأويل في معاني التنزيل**، المؤلف: أبو الحسن علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي المعروف بـ(الخازن) (ت: ٧٤١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٥هـ.

٥٦) **اللباب في علوم الكتاب**، المؤلف: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (ت: ٧٧٥هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م.

٥٧) **لسان العرب**، المؤلف: أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي جمال الدين ابن منظور الأنصاري (ت: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر، بيروت، ط: الثالثة، ١٤١٤هـ.

٥٨) **لوامع الأنوار البهية**، المؤلف: أبو العون شمس الدين محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (ت: ١١٨٨هـ)، الناشر: مؤسسة الخافقين، دمشق، ط: الثانية، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٥٩) **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات**، المؤلف: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت: ٣٩٢هـ)، الناشر: وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط: ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

٦٠) **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، المؤلف: أبو محمد عبد الحق ابن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي (ت: ٥٤٢هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٦١) **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ابن هلال بن أسد الشيباني (ت: ٢٤١هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٦٢) **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ**، المؤلف: أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري (ت: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٦٣) **معالم التنزيل في تفسير القرآن**، المؤلف: الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت: ٥١٠هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٦٤) **معاني القرآن وإعرابه**، المؤلف: إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج (ت: ٣١١هـ)، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، الناشر: عالم الكتب، بيروت، ط: الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٦٥) **معاني القرآن**، المؤلف: أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الفراء (ت: ٢٠٧هـ)، المحقق: أحمد يوسف النجاتي، ومحمد علي النجار، الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، الطبعة: الأولى.

٦٦) **معجم مصطلحات أصول الفقه**، المؤلف: د/ قطب مصطفى سانو، الناشر: دار الفكر، بيروت، لبنان، الأولى، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

٦٧) **معجم مقاييس اللغة**، المؤلف: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (ت: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٦٨) **مفاتيح الغيب**، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن التيمي الرازي (ت: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الثالثة، ١٤٢٠هـ.

٦٩) **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، المؤلف: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن عبد الله بن موسى الأشعري (ت: ٣٢٤هـ)، الناشر: المكتبة العصرية، ط: الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

وغير ذلك من المصادر والمراجع التي ذكرتُها في ثنايا البحث

